

مِصْرٌ  
فِي تِلْكَ الْقِسْرِ  
بِمَهِّمَةِ الْمَاضِي وَالْمَاضِرِ

« لا ترضى انكثرا بتقدم مصر ورفيها »  
الوزير الانكليزي « بلرستون »

عبد السيد يوسف بنظر المحرر الانجليزى بالمطبع  
تأليف الكاتب الاجتماعى الأستاذ

« محمد مصطفى الرزبواوى » ١٩٠٦-١٠-٦



( عُنى بنشره )

يُجَرِّدُ عَلَى مَنَبِ صُورِ

FROM THE LIBRARY  
OF DR. KHALED AZAB

٥١٣٣٨

١٩٩٩



# مِصْرٌ فِي ثَلَاثِينَ قُرُونًا بِسَبِيلِ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ

« لا ترضى انكثرا بتقدم مصر ورقيا »  
الوزير الانكليزي « بلرستون »

---

« تأليف الكاتب الاجتماعى الأستاذ »  
« محمد مصطفى الهرمياوى »

---

( عَنِ بَشْرِهِ )

مُجَدِّدُ عِلْمِ مِصْرٍ

---

٥١٣٣٨  
سنة  
١٩١٩ م

## اهداء الكتاب

إلى روح « محمد فريد بك »

تهدى الأعمال الصالحة ، إلى الأرواح الطاهرة . فان كان  
كتابتى هذا عملاً صالحاً - وأرجو أن يكون كذلك - فهو  
هديتى إلى روحك الطاهر

محمد مصطفى المهيأوى

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الله القاهر فوق عباده ، إن مسنا الضرّ فهو كاشفه ، وإن  
مسنا الخير فهو المنعم به ، والطاعة لله فيما أمر : « يا أيها الذين  
آمَنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »  
وله التصديق فيما قال : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن  
الله والله مع الصابرين »

هذه « مقالات » أنشرها متضامة بين هاتين الدفتين —  
وقد نشرها « وادى النيل » متفرقة -- ولست أزعّم أنّها كل ما  
يؤدى به الكاتب المصرى فرض البيان والارشاد لأمتة في  
وقت شدتها ، وحين ثورة آمالها العظمى . ولكنى أزعّم أنّها مرآة  
عسى أن تحمّلها اليد فلا تضلّها ، وتسرح فيها العين فلا تنتقل عنها  
إلا عند ختامها . أرجو أن تكون كذلك ، لا لشيء ، إلا أن بها  
صورة صغرى من صور الماضى ، تنبئ النفس بمجره وبمجّره ،  
وتصدم الأذن والعين بوضعه ودفعه ، وإنّى لأعلم أنّها صورة  
مؤلمة . ولكنى كذلك أردت ، وكذلك أريد ، فإن الآلام تحيى

من القلوب ما أماته الغفلة

ولعلنا ندرك أن الأمنية التي يطلبها كل مصرى الآن لأمنته  
ونفسه ، لم تعد مطلوبة كما تطلب اللذات المعنوية ، لعلنا لا نطلب  
الاستقلال التام لنتمتع بلذة الشعور المعنوى بأننا مستقلون ، فقد  
عظم الأمر حتى تجاوز المعنويات فصارت الأمنية ، أمنية الحياة ،  
حياة المبشرين في هذا العصر ، وحياة أبنائهم إلى الأبد

ولئن لم يبلغ الأمر تمامه لحقت على أصحابه كلمة الشقاء السرمد ،  
ألهم إن أحييتنا ، فهي لنا المصير الذي لا نريد غيره ، فإن سبق  
منا التفريط فيما نحب وكان جزاؤنا عندك أن يسبق منك القضاء  
بما نكره ، فاقبضنا إليك ، وضمننا إلى جوارك ، ولكن الله أرحم  
من أن يخذل مجاهداً في حق مسلوب . والله مع الصابرين

محمد مصطفى المهياوى

## كلمة الناشر

د. محمد مصطفى

أُحمد لله وبه تفتي - وبعد - فإن الباعث لى على العناية بطبع هذا الكتاب : « كتاب مصر فى ثلثى قرن بين الماضى والحاضر » الذى كتبه صديقنا اللوذعى الأديب الأستاذ محمد الهياوى (١) افندى المحرر الأول لجريدة وادى النيل الغراء ، مع أنه نشر على صفحاتها ، أنه ليس من الموضوعات التى تقرأ فتسى ، أو يمر عليها القليل من الزمن فتطوى ، بل هو الكتاب الفذ الذى لا يستغنى عنه أي مصرى يهتم بشأن بلاده ، ويعتنى بمستقبل أولاده .

---

(١) الأستاذ الهياوى أنضجته خمسة عشر عاماً فى الصحافة . متنقلاً من جريدة الدستور . الى اللواء . الى مصر الفتاة . الى الجريدة . الى وادى النيل - وهو فى كل هاتيك المواطن لا يقنع له بالشأن . وطنية خالصة كما شاءت مصر . واخلاص لبلاده كما يريد الوفاء . وعقل مداد لقلم فياض . وغيره متوثبة يراها من يعرفه ويقرأ بيانه فى شدة العارضة التى تتخلل سطوره . وفى قرعه الحجة بالحجة . واقتحامه براهين خصمه بما يقبلها رأساً على عقب

ذلك هو الأستاذ الهياوى الذى تقدمه لقراء هذا الكتاب . وهذه هى فذلكمة من سيرته العاطرة . فلا فلل الله هذا القلم الرهيف . وأكثر من أمتال حامله بين الكرام الكاتبين

كتاب جمع فأوعى من مختلف الأساليب ، ومتباين الموضوعات  
التي تخطر أو يحتمل أن تخطر بخيلة الباحث المفكر في حالة مصر  
الدقيقة ، هذا البلد المختبط المضطرب !!!

أتى على تاريخ البلاد في الثمانية والثلاثين عاما التي منيت فيها  
بالاحتلال البريطاني المتكود .

وشرح ما أتاه من الأعمال المختلة التي يتشدق رجال السياسة  
الانجليزية بالمنّ علينا بها . وقارن بينها وبين أعمالنا من عهد  
المغفور له محمد على باشا إلى الساعة المنحوسة التي وطئت فيها قدم  
« الاختلال » أرض هذه البلاد ::

قارن بين أعمالهم وأعمالنا ، بما أثبت تعمق الانجليزى في الجهالة  
— أجهالة بما يجب أن يكون من الإصلاح في مصر — فقد كان  
الانجليزى إذا ترك لنفسه في هذه البلاد ، لا يكون إلا أعمى  
يضرب في أرض جهولة . على أن قصارى ما يستطيع أن يدعيه  
الموظف الانجليزى من الحركة في وظيفته إنما يتاح له بعد أن يتلقى  
دروس التمرين يوم تقذف به بلاده إلى مصر على يد موظف من  
أهل البلاد — ثم ما هى إلا فترة قصيرة حتى ينقلب التلميذ رئيساً  
كبيراً !! لا لأنه تعلم ، بل لأنه أمضى في الظاهر مدة التجربة !!  
وقد بحق لنا أن نقول : إن اساتذة الانكليز من المصريين ،



شركاء في تبعة الخلط والخلل والاضطراب الذي كان أمراً لازماً  
للأعمال ، لأن هؤلاء الأساتذة الموظفين قبلوا تمرينهم ، ولو لم  
يفعلوا ذلك لبق الانجليزى أجهل مما دخل . !!

حسبك باللورد كرومر مثلاً . فقد قال بعد تركه مقاليد  
الأمر وقد تولاها زمناً طويلاً ما نصه : « إني أقمت في مصر  
مدة قبل أن تحققت قلة علمي بموضوع اشتغالي . ووجدت إلى آخر  
أيامى في تلك البلاد . أنى كنت أتعلم فى كل يوم أمراً جديداً . »

حسبك به مثلاً لتفقه الواجب عليك نحو مفتصبى بلادك ،  
وسالبي حريتك !!

بل حسبك أن تعرف نيات القوم نحو وطنك المفقدى ، من  
تصريح وزيرهم الأكبر « بلرستون » الذى صدرنا الكتاب  
بكلمته بل بوخزته الموقظة « لا ترضى انجلترا بتقدم مصر ورقبها »  
لتقدر الواجب عليك قدره فتعمل خير بلادك وسعادتها ، تعمل  
لاستقلالها وحريتها ، فقد كفاك ما مضى

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا  
وحسبُ المنايا أن يكنْ أمانيا

هذه خطرات تذكرها النفس كلما التفتت إلى الماضي القريب ،  
أما الآن وقد تفتحت أعيننا ، واستيقظت قلوبنا ، واجتمعت كلمتنا  
فقد أصبح سبيلنا أن نعمل . وأن نضع صورة الماضي أمامنا ونحس  
عاملون نرى في مرآتها ما أصابنا في - ثلث قرن - كان كفيلا  
أن يبلغنا ما أبلغ الأمم التي تعاصرنا لو أننا كنا مستقلين ::

وهنا يعلم كل قارىء كيف يجب أن ينشر مثل هذا الكتاب  
- في مثل هذه الظروف - وأن يقرأه ونحفظه ، ونحمله في  
غدواتنا وروحاننا ، وتدارسه بين بيوتنا ، وعلى أسمع أبنائنا ،  
ولا أقول إنه كتاب يستغنى به عن غيره في موضوعه ، ولكنى  
أقول : إنه من أحسن الكتب الموقظة للهمم ، المنبهة للنفوس ،  
المحيية للأمال

فلا غرو إذا قلت : إنه أصدق مرشد ، وأعظم هاد ، يهدينا  
إلى سبل إقناع المكابرين ، ويساعدنا على رد كيدهم في نحورهم ،  
بالحجج الدامنة ، والبراهين الساطعة ، وعلى الله قصد السبيل  
محمد على منصور



## المقدمة

أنظر في تاريخ مصر الحديث ، منذ بدأت نهضتها التي وافقت أعظم نهضات الأمم نشأة وغاية ، تجد في صفحاته ، وبين سطوره بثوراً كبثور المرض الجلدي . ثم تبينها وقل بعد ذلك : أليست هي فقايع تملؤها جرائم السياسة الفادرة ؟

في الوقت الذي ثارت فيه فرنسا ثورتها الكبرى ، فدكت صرح الظلم ، ومزقت حجب الجهالة ، وأطلعت شمس حررتها لتستقبل حياتها طيبة . في ذلك الوقت بعينه كان محمد علي يخطو بمصر خطوات الجبار الذي يرى بصره الى غاية يأبى إلا أن يدركها . وقد لا تجد تناسباً بين أمة جاءها رجل واحد فوكرها لتصحو ، ثم ساقها للتقدم . وأمة أخرى وقف الموت بروحها بين شفتيها فجملت من اليأس قوة أطفأت نار الظلم ودقت عنقه . قد لا تجد تناسباً بين الامة المصرية يوم جاءها محمد علي حاكماً مطلقاً يوقظها من النوم ، ويرفعها من الضمة . والامة الفرنسية يوم ثارت بنفسها تذيب قيود الاستبداد واغلاله بنار الحقد والظنينة . ولكن محمد علي كان زارعاً جديداً ، وكان طامعاً في ملك عريض ومجد باذخ .

فلا عجب أن يكون همُّ أن يني الملك العظيم في شعب له من عظمة  
المجد التاريخي ما ليس لغيره

وكانما كان محمد على يريد أن يكتب بيده صفحة تاريخه فلا  
يضع بين سطورها مكاناً يكتب فيه : ان هذا الجندي الالباني  
الصغير لم يكن وارث الملوك ، ولا ريب المروش فكيف لا تصيبه  
الخطيبة كما أصابت كثيرين غيره خرجوا من دهاء العامة يطعمون  
في العرش والتاج . كأنما كان هذا الجندي يريد ان تضيق سطور  
تاريخه عن أن تسع مثل هذه الوصمة ، فكتب صفحته بيده ، وأنى  
أن تقلبه الحوادث على أمره . فبلغ ما أراد على كره من الأيام  
ان مثل مصر بين الناس كمثل السفينة على غوارب البحر الهائج .  
تسلمها لجة الى لجة ، ولكنها قوية على متن البحر فلا تفرق .  
وكانها الحبة الوسطى في عقد الممالك ، كل أحد يريد لها ، وكل أحد  
يصرف عنها طمع غيره فيها . ولم يكن محمد على يجهل ان هذه مكانة  
بلادها عند الناس . وماذا كان يصنع إلا أن يوفّرها بتماويذ  
السياسة ويرقيها برقي الخلل والخداع ليداوي الداء بالداء . ويرد  
الحديد بالحديد . وكان أخوف ما يخافه أن تنهيا الفرصة للانكليز  
فيظفروا ما أبطنوا ، ويعلموا ما أضفروا . وكانت عقارب السياسة  
تدب بين فرنسا وانكلترا في خفاء ، فتحذر كلتاها أن تقلبها الاخرى

على مصر ، ولكن فرنسا كانت بصيرة في الطمع معتدلة في  
 القراهة ، قال اليها محمد على لانها أخف ثقلاً ، ولأن سياستها أقل  
 سماجة . على ان انكثرا مع هذا لم ترد عقارب سياستها الى الوكر  
 الرجل الذي أراد أن يبنى الملك العريض على أساس من  
 عزمه استطاع ان يرفع له صرح ملك يضرع النجم ، وما كان ليم  
 له ذلك إلا لانه اختار لبنائه أرضاً يستقر عليها البناء . ولولا انه  
 كان كمثل الزارع لما وجب ان يقال انه اختار أخصب تربة ، وأصفى  
 جو لزراعة فأصبح بهيجاً . ففي ربع قرن جعل اليا بس رطباً ، والتحل  
 خصباً ، والجهل علماً ، والفقر غنى ، والخراب عماراً ، والليل نهراً ،  
 وفي ربع قرن أحى الصناعة ، ونشر التجارة ، وأنشأ الاسطول ،  
 وسد الثغور ، وحشد الجيوش . وكان يعتمد على شعب مرن في  
 الخير ، بصير بما ينفع ، متطلع للحياة الطيبة والمجد المطر . وكان  
 له من هذا الشعب ومن الوطن المختص بمواهب الثروة ومزايا النفي  
 قوة حسية ومعنوية تنبيه عن الناس وتلقى في روعه ان الناس  
 مقترون اليه ، او حاقدون عليه ، أو طامعون فيه ولم تستعص  
 على الجندي المصامي أسباب العظمة في هذا الوطن العظيم ، فكل  
 شيء هي سريماً كأنه شذوذ في سنة تكوين الأمم ، أو كأنه  
 ظاهرة غريبة بين ظواهر الاجتماع البشري . ولم يستعرج الزمن

بمحمد على طويلاً حتى قام يفتح الاقطار بجيشه المصري، وأسطوله المصري، وماله المصري، وذخائره المصرية . وقد استفحل امره وعظم شأنه، تخافته الدول وهابته الممالك . وقذف الله به الرعب في قلب أوربة القوية بجيوشها واساطيلها، الفنية بأموالها وصناعاتها وتجارها . المالكة زمام النصر بالعلم المنشور، والفضل الماثور

هذا إجمال تاريخ النهضة المصرية أيام محمد علي الجندي الالباني الصغير . وقد ذكرنا أنها وافقت النهضة الفرنسية . والذي ينظر في تاريخ النهضة يوم ابتدأت لا يسهل إلا ان يحكم ان نهضة مصر كانت أوفر نشاطاً، وأوسع خطوة . إذ لم تكن تتمتع في طريقها بما كانت تتمتع به نهضة فرنسا وهي طفلة، فكان يجب أن تؤدي مقدمة النهضة المصرية الى نتيجة كالتي أدت اليها مقدمة النهضة الفرنسية ان لم تكن اعظم منها . فلماذا لم يكن ذلك ؟؟

يوم طلع فجر النهضة المصرية فرسم نوره على أفق العلم خطأً أبيض يجلو سعادة مصر وأبنائها، كانت أفى السيادة تملأ شديها سماء، وكانت ترصد الغفلات فتنتف من هذا السم قطرات تصيب جديد حقلنا فيصدأ . فكم مرة قتلنا هذه الأفى، وكمر مرة قدمت لنا منذ القدم مقاعد الشر لتقتلنا ؟؟ ..

ولكن الجندي الالباني كان يقطاً، غير ان أفى السيادة

مكرث بغيره فأذته بهذا المكر . ويذكر التاريخ من أمثلة ذلك قصة إحراق الاسطول المصري التي لم تزل مكتوبة في تاريخ السياسة الروسية بقلم العار، وقد كان يتاح لروسيا ان تنال نخر إحراقه بقوتها وارادتها معاً، لو انها كانت غير مسخرة للسياسة التي وصفت بالذمير في أول سطر من تاريخ العالم السياسي . غير ان جندينا الصغير كان في أمته أعظم من اصحاب العروش وحملة التيجان

مضى لنا منذ تولى محمد علي ولاية مصر نحو قرن وربع قرن . فانتقسم هذا الزمن ثلاثة عهود . الأول عهد محمد علي . الثاني عهد خلفائه الى سنة ١٨٨٢ الثالث عهد الاحتلال الانكليزي من سنة ١٨٨٢ الى اليوم . وقد يعتقد الناس اننا قطعنا ما قطعنا من العهد الاخير برقي يناسب حركة العالم في التقدم المصري، وتقضيه طبيعة روح الحياة ايا شباب الانسانية . واذا كان الحق خلاف ذلك فان هذا الحق لا يثبت عند من يجهلونه ومن خدعهم اُصايل السياسة الا بصف وعناء . فان العقل البشري لا يكاد يصدق ان أمة لُزمت الجود على حال واحدة فلم يطرأ عليها جديد من اسباب الحياة غير ما كان لها منذ قرن وربع قرن اللهم الا ما بلغته بنفسها وهي تحرك تحت الانتقال وتعاي ما اصابها من القيود والاغلال، فنحن لذلك نعالج عنف الاقتناع ونهض ببناء الاثبات بالبرهان القاطع حتى اذا

سطع نور الحق لم نعد نشعر بعنف ولا نجد عناء

أول ما ندعيه السياسة الانكليزية انها أفاضت على مصر حياة  
حسية لم تكن تحلم بها من قبل . فإذا سئلت أي شيء هي هذه الحياة  
الحسية ؟ وأين مجراها من عروق الامة ؟ قالت هذه السياسة  
مفتخرة : ليس بمد الزراعة وبهجتها ، ونظام الري ودقته ، من  
حياة . أما مجراها من عروق الامة فبين أجساد الفلاحين الذين  
يسبحون بحمد المصلحين بكرة وأصيلا !!! هذه هي الدعوى التي  
ترى السياسة أنها في مكان التصديق من النفوس لانها تزعم ان  
الحس شاهد عليها . ولكن السياسة أخطأت حين ظنت ان  
حقائق التاريخ الحديث مجبولة ، او انها تملك ان تمحوها من الصدور  
اذا ملكت ان تمحوها من السطور . وستظل مخطئة هذا الخطأ  
اذا ظلت ظانة ذلك الظن

ان الزراعة في بهجتها منذ احيائها محمد علي ، ولو لم يكن هناك  
دليل على ذلك إلا تاريخه الحربي لكان دليلا قاطعا . فالرجل  
حارب اقوى الدول بجيوش كثيفة ، وارتحل عن بلاده الى الاقطار  
البعيدة بذخائر واساطيل ، ولم يكن يعتمد على غير بلاده . فهل  
كان يتخذ من الحمى قوداً ، ومن التراب خبزاً وماء ؟ أم ماذا  
كان يفعل لجيوشه في الحرب الطويلة اذا لم تكن زراعته نصيرة ؟



وغلالة وفيرة؛ ثم كيف كانت نضرة الزرع ووفرة الغلات اذا لم تكن الزراعة في محل العناية العظيم علماً وعملاً...

ينهض هذا الدليل اذا لم يكن هناك نص صريح في أن ما نراه اليوم هو ما فعله محمد علي . وعندنا مصادر كثيرة مستفيضة بالنصوص التاريخية ، ولكن الدليل الذي لا يستطيع الخصم انكاره ما كان قائماً من ناحيته او ما كان له حظ في إقامته . ونحن نجد هذا الدليل في تقرير « لجنة التجارة والصناعة » . وليست قيمته في ان اللجنة حجة ثقة عند الحكومة لانها هي التي ألقتها . بل في أن بين أعضاء اللجنة ثلاثة من كبار الانكليز هم المستر « سدي ويلز » مدير ادارة التعليم الفني والصناعي والتجاري . والمستر « كريج » الذي كان مبراقباً لقلم الاحصاء العام بوزارة المالية . والمستر « ف . مردوخ » من أرباب الصناعات بمدينة « المنصورة » : والدليل الذي نشير اليه هو قول اللجنة في الفصل الاول من الباب الثاني من تقريرها : « وكان همه الاكبر — تريد محمد علي — متجهماً الى ترقية الزراعة والصناعة . وتحقيقاً لهذا الغرض السامى رأى ان يستعين بمدينة أزرق من مدينة بلاده كما أنه مهد للشعب سبيل الحصول على حاجته من التعليم . وبث فيه الرغبة في طلب العلم . ووضع كذلك المشروع العظيم لاعمال الري والترع والقناطر وبدأ في تنفيذه

## فككت أعماله بالإنجاح ، ( ١ )

لم يحدث في العهد منذ سنة ١٨٨٢ شيء جديد للزراعة المصرية .  
لم تزد أنواعها ، ولم تتغير أساليبها . اللهم الا شيء واحد جديد ،  
هو نقص متوسط المحصول وكثرة الآفات ، وإرهاق الفلاح  
بالمغارم المتنوعة

ولم يحدث شيء جديد للري . اللهم الا نظام يهلك الزرع ظمأ ،  
ويلاً قلب الفلاح كدأً وغيظاً ، كلما وقف امام زرعه فرآه يموت

( ١ ) شرحت اللجنة ما فعله محمد علي باطناب في الفصل الاول من  
الباب الثالث من تقريرها ( ص ٤١ - ٤٢ - ٤٣ ) وكلامها في ذلك برهان  
على انه فعل ما فعل ليصل بمصر الى غاية يرى اليها وهي ان تستقل  
استقلالاً سياسياً واقتصادياً . فأتخذ لذلك الاسباب الصحيحة التي ذكرتها  
اللجنة . ومعنى هذا ان التحول عن خطته وامانة آثاره يؤديان الى تقيض  
الغاية وضياع الاستقلال سياسياً واقتصادياً . وقد أدبنا الى ذلك فعلاً .  
وهذا ما قالته اللجنة :

« كان محمد علي باشا يطمح الى رؤية مصر في مصاف الأمم الكبيرة  
وكان همه الأكبر تحريرها من القيود الأجنبية كافة ومنحها في آن واحد  
الاستقلال السياسي والاستقلال الاقتصادي . فتوصل الى هذه الغاية أخذ  
ينشئ في نفس القطر موارد الانتاج التي لا بد منها لبلوغ الرقي المنشود »  
وقالت بعد ذلك : « افتتح المصالح الكبير عمله بإحياء صناعة السفن فشيّد  
دار الصنعة في بولاق حيث كانت تصنع أجزاء المراكب من خشب الاشجار  
النامية بالقطر ثم تحمل هذه الاجزاء على ظهور الجمال الى السويس حيث

بنار للقيظ الشديد ، وتار الظأ الشديد ، والماء حرام عليه . وهو على قيد شهر منه

لم نعرف أثراً لهذا العهد في احتفار ترعة ، أو بناء خليج . ولستنا من يكتم الحق إذا قيل ان « خزان إسوان » أثر خالد للاحتلال الانكليزي . ولكن لا ينبغي لأحد أن يكتم الحق أيضاً إذا قلنا ان هذا الأثر العظيم قام حداً فاصلاً بين مصر وسودانها فأصبح محبس الماء عن الوادي ، فلا يرسله إلا بقدر

كان يجهز الاسطول المعد لمحلة الحجاز . وقد كانت الصناعات الحربية تستغرق بطبيعة الحال الشطر الأكبر من اهتمام محمد علي فبدأ بالتقاط التقليل الباقي من ارباب الصناعات منذ العهد القديم وحشد تحت رأسهم الآلاف من العمال فشرعوا يصنعون آلات القتال وسائر ما محتاجة الجيوش من الذخائر والمعدات وكان ذلك باشراف جماعة من المخصيين الاوربيين ولما تأمل محمد علي في حاجته الى تجهيز الجيش بالملايس واللوازم خطر على باله أن ينشئ في مصر المصانع والمعامل . وما لبث ان حرك هذا الامر في نفسه أشد الاهتمام حتى دعا الى توسيع مشروعاته الصناعية بحيث أصبح في طاقة المصانع المصرية ان تخرج من المصنوعات ما لا يقتصر على الوفاء بحاجة الجيش ومطالب البلاد بل كانت تنتج أيضاً بعض الاصناف برسم التصدير الى الأسواق الاجنبية . وكان اول ما أنشأه من هذا القبيل مصنع النساجة بمجة الخرقش في القاهرة وكان يقوم بادارته أخصائيون من الطليان وكانوا يصنعون به القطيفة والحرائر فضلاً عن الاقشة القطنية والكتانية . ولما رأى محمد علي نجاح هذا المصنع دعا الى انشاء أربعة

معلوم . ولا يجرى هذا القدر إلا بمشيئة مطلقة ، تعطى وتُمنع ،  
لا بخلاً ولا كرمًا ، بل تحكمًا وإكراهاً على الازعان

كل الانهار والترع والجسور والقناطر والساكر كانت قبل  
هذا المهد . وفلاح مصر اليوم هو فلاحها منذ القدم ، لم يتعلم  
جديدًا غير اسلوبه الموروث ، ولم يتناول بذراً جديداً غير بذره  
المعروف ، والارض هي الأرض ، والهواء هو الهواء ، والشمس

مصانع أخرى للغزل والنساجة في انحاء مختلفة من القاهرة وكاذ القطن  
المصري أم الغمامات المستعملة بتلك المصانع ثم أمر بإنشاء تشوروش  
أخرى للنسيج في قلوب وشبين الكوم والمحلة الكبرى وزفتى وديت غمر  
والمنصورة ودمياط ودمهور ورشيد وشرين من مدائن الوجه البحري  
وكانت ورشة دمياط متوفرة على صنع قلع المراكب وأمر كذلك بإنشاء  
ثمانى ورش في بني سويف والمنيا وأسيوط وجرجا وطهطا وفرشوط وقنا  
والواحات من جهات الوجه القبلي . وكان تتاج هذه المصانع يفي بمطاب  
الشعب والجيش وما يفضل من ذلك يصدر الى الشام والى بعض البلاد  
الأوربية

وقد فكر محمد على في ادخال صناعة الحرير الى مصر فأمر بفرس الكثير  
من شجر التوت وبذل مساعيه في تنشيط هذه الزراعة وتوسيع نطاقها  
ثم استدعى من القسطنطينية جماعة من أهل الخبرة بهذا الامر وقد  
أسفرت التجارب الأولى عن النجاح وأخرجت المصانع المصرية حريراً  
يضاهى حرير الهند

وفي عهد هذا الامير وبفضل همته ظهرت في مصر عدة صناعات أخرى

هي الشمس ، وفصول السنة لم تتغير فهي التي تمر بنا منذ خلق الله الزمان . فإذا حدث ؟؟ أين الحياة الزائدة ؟ أو أين القدر الزائد في الحياة ؟؟

إذا لم تبلغ مصر حظها الحسي الذي بلغتته الآن ، لوجب أن لا تكون من الأرض التي يعمرها البشر . على أنها لم تبلغ حظها من الحياة التي ارتقى إليها العالم بخطواته الواسعة ، لأنها قيدت بينا كان العالم طليقاً . ولكن موطن النظر هو هل كانت تبقى جامدة لو أنها كانت طليقة ؟ هذا الذي نريد أن نعرفه الآن ؟

أهمها صناعة الجوخ والحبال والبسط والطرايش والزيوت والاعطار والشمع وهو الذي أمر بتشديد مصنع الزجاج في معمل القواز وبإنشاء معامل أخرى للورق والصابون وصب المدافع وصنع سائر الأسلحة وصناعة الحدادة وسبك المعادن والسكاكين والمطاوي والسروج وبث هذه المعامل في جهات مختلفة من البلاد ولا سيما في جهة بولاق . وكانت القوة المحركة تختلف باختلاف المعامل فالمصانع الكبيرة كانت تدار بالآلات البخارية والمصانع المتوسطة والصغيرة كانت تدار بالحيوانات أو بمجرد القوة البشرية

وما كان هذا المجهود العظيم لينتج ثماره لو لم يقرن في الوقت عينه بتعليم النابتة المصرية المدة للاشتغال بالصناعة تعليماً واقعياً صحيحاً فصولاً إلى هذا الغرض أنشأ محمد علي مدرسة الفنون والصنائع القائمة الآن ببولاق كما أنه أخذ يكثر من إرسال البعث إلى أوربا حتى يصير من هؤلاء الطلبة مديرون للمعامل ورؤساء للمصانع ، اهـ

أنشأ محمد علي وخلفاؤه المصانع لكل شيء ، فبقيت المصانع الى أن طغى على مصر سيل العهد الاخير . وأنشأوا القلاع ليزودوا الطارق المنير عن الثغور والسواحل ، فبقيت قلاعهم الى أن دخل على مصر ليل العهد الاخير . وأنشأوا المدارس لكل علم وفن ، فبقيت مدارسهم الى أن نشبت بمصر أعاصير العهد الاخير . فلذا أصاب مصر في هذا العهد الاخير ؛ هدمت المصانع فأصبحت مصر حالة على غيرها تستجديه أحقر الحاجات . ودرست الصناعات والفنون فأطبقت على الأمة جهالتها . وهدمت القلاع ، وأباحت السواحل والثغور ، فصارت البلاد كالدار المهجورة يدوسها كل طارق ، أو كالحي المباح ينتهكه كل راع . وهدم بعض المدارس وبقي منها ما تم الخدعة ببقائه بعد أن مسخ فأصبح صورة جوفاء . وهيئات أن تقتخر علينا يد الاصلاح بشيء ، اللهم إلا سياسة تشهد بالعجز قبل أن تشهد بسوء النية . ويأويل العلم والاصلاح والتدين ممن يعالجهما ستا وثلاثين سنة ثم يقول بنفسه في نفسه ان الدواء كان داء . ومن العجب أن تمرن الطيب ستا وثلاثين سنة فيختمها بالخيبة ، ثم يطلب أن تمرن مدة مثلها ١١ ويارحمنا لمرضى غفلت مشارط طيبه التمرن ومقارضة في جسمه كل هذه المدة لا بشيء إلا أن الطيب تمرن ١٠٠ أما المدارس

العالية، فالحمد لله، لا تستطيع السياسة الانكليزية أن تهيئ لها  
أنشأت منها واحدة في عهد الاحتلال، فكلمها قبله . على أنها  
تستطيع أن تقول أنها ألقت بعضها ... وانها جاهدت لتتقضى  
على « جامعة الامة » ، ولا ندرى فاعل ذلك كان في سبيل التعليم  
أيضاً !!

إلى هنا يسهل على القارىء أن يعرف العهد الأول والعهد الثالث من ثلاثة العهود التي مضت منذ تم الأمر في مصر لمحمد على . ومتى عرفهما بما وصفنا سهل عليه أن يفاضل بينهما ليرى أيهما يفضل الآخر . وسهل عليه بعد ذلك أن يبصر بعينه ، ويلبس بيده ، حقيقة هائلة تنطوى في أحرف هذا السؤال : هل ~~كنا~~ نكون في مثل حالتنا الحاضرة اذا دامت بنا الحياة على نحو ما كان لعهد محمد على وعباس الاول وسعيد وابراهيم واسماعيل ؛ وبعبارة أخرى : هل تقدمنا أو تأخرنا ؟

يمرّ قلم السياسة في كتابة التاريخ أحياناً . ولكن للسياسة قلماً غير القلم الذي يكتب الحقائق الصريحة ويمحص مسائل التاريخ . فنل القلم الذي حملته يد اللورد كرومر حين وضع كتابه « مصر الحديثة » لا يكون مقبول الشهادة أمام العدل التاريخي ، لأنه مغموس في مناد السياسة . وقد لا يمد الكاتب السليبي غضبانه

إذا حمل هذا القلم وهاجم به الحقائق . بل قد لا يجد عيباً في ذلك وإن حمله بيد ترعشها الشيخوخة كيد اللورد كرومر يوم أملت عليه أصفاته السياسية ذلك الكتاب

وليس كثيراً في لغة السياسة أن يقعد الرجل الى مسألة يبحثها وهو يعرف الحق في أمرها . ولا عيباً في أخلاق السياسة أن يجلس صاحبها جلسة ، ربما كانت طويلة ، ليستخرج العسل والأسياب كما يهوى ، لا كما تهوى الحقيقة . هكذا كان اللورد كرومر في كتابه ، فقد جلس يبحث أسباب احتلال الانكليز مصر . وجعل يحاول إقناع الناس بأن الاحتلال كان خطباً جسيماً على انكلترا تحمته بشم وشرف وابهاء !! لا شيء إلا ان تنقذ مصر وتسلمها !! فكانت في ذلك كالأب الرحيم ، يتعب ليريح أبنائه . ولم ينقذ الرجل بهذا التفضيل فجعل مسألة الاحتلال تبعة كانت محل النظر بين المحافظين والأحرار !! وكان كل فريق يلقيها على الآخر ويرفع عن أن تنسب اليه !! ثم وقف موقف الحكم بين الخصمين فقال في الفصل التاسع من كتابه : « وسيظهر من الفصول القادمة من هذا الكتاب أن جلّ التبعة في وقوع الاحتلال راجع الى ما فعلت حكومة المستر غلادستون لا إلى تدابير الحكومة التي رأسها اللورد سلاستون قبله » . ولا زب أن من يهون



أقل اللام بموقف السياسة الانكليزية أمام المسألة المصرية في كل أطوارها ، يعلمون كيف يقع التناقض بين زعم الشعور بالتيمة ومحاولة الفرار منها ، وبين النيات التي استكنت في صدر السياسة الانكليزية ، حتى ظهرت يوم بدأت انكلترا وفرنسا تتحرشان بالخدو اسماعيل

غير أن شر التناقض ما قصد به إخفاء الحقائق بتشويه سمعة الرجال تنفيراً من النظر في سيرتهم ، حتى لا يظهر فضل أيامهم على أيام سوام . وهذا الذي يجب الالتفات اليه خاصة ، فقد جهد اللورد كرومر كما جهد غيره في النيل من عباس باشا الأول وسعيد واسماعيل ، فألقى عليهم صورة الوحوش . ومن ذا الذي يظن أن للوحش عقلاً حتى ينتظر أن يرى له مائدة في الإصلاح ؟ ولكن الحق لا يخفى . وقد قلنا قبل ان السياسة لا تستطيع ان تمحو الحقائق من الصدور ، إذا استطاعت أن تمحوها من البطور ، وهذه أمثلة من تناقض الحق والسياسة

قال اللورد كرومر في عباس باشا الأول : « أما عباس فكان عاتياً شرقياً من أردأ الانواع . تروى حكايات لا تعد عن قسوته التي تنفر منها النفوس ولم يكن له مع هذه السيئات حسنة مثل أسلافه بل إن صفاته كانت قبيحة من جميع الوجوه »

ويقول التاريخ الصحيح ان من أعمال عباس باشا الاول على قصر عهده انه « ارسل بعوثاً علمية الى أوربة عدد طلبتها ٤٨ طالباً اتفق عليهم ٩٢٣ ٨٢٣ جنيه ». فلعل اللورد كرومر يمد هذا العمل إحدى سيئاته التي لم يكن له معها حسنة واحدة !! . ولعله لم ينس حين كتب ما كتب ان عهده في مصر كان عهد قضاء على البعوث العلمية ! .

وقال هذا اللورد في سعيد باشا : « انه كان أقل غلظة وتوحشاً من سلفه ولكنه أتى أعمالاً في منتهى القسوة والشناعة »  
وقال أيضاً : ان المستر ولن فنصل انكلترا في القاهرة كتب الى المستر سينيور سنة ١٨٥٥ : « ان سعيد باشا طائش متهور مجنون فقد صوابه من مداينة الأجانب المحيطين به »  
وتقول لجنة التجارة والصناعة في تقريرها : « وقد جنى أعقابه — تريد محمد علي — ثمار أعماله العظيمة ولم يألو جهداً في أن يحذوا حذوه ويقتفوا أثره غير مدخرين وسعاً في أعمال التحسين والتكميل وكان لسعيد باشا واسماعيل باشا قصب السبق في هذا الميدان »  
أما اسماعيل باشا فلا يحتاج أبناء الجيل الحاضر الى تكذيب ما يتقوله عليه السياسة ، فانهم لم يزالوا منمورين بآثاره يرونها ، في كل شيء . وتقابلهم في كل مكان ، فكل شيء في المدن

والاقاليم وطرقها وشوارعها ناطق بهذه الآثار . ولا يظن أحد  
ان سليلا من سلالة هؤلاء الرجال المصلحين يسلم من تلك اللدغات  
اذا وقف في طريق الأفعى السياسية

ولعلنا في حاجة الى أمر لا بد لنا ان نذكره قبل ختام هذه  
الكلمة فانا نحسب ان الأذهان غير ملتفتة اليه :

يسمع المصريون أحيانا ذكر أسماء رجال النهضة الحديثة من  
مصريين وأوربيين ؛ أما رجالنا وشباننا فانهم يعرفون تلك  
الأسماء . وأما ناشئتنا الحديثة فهي لا تعرفها ، لانها لم تعد تسمع  
ذكرها بعد ان كانت من المدارس في مكان الاساتذة ، ومن  
الألسنة في محل التمجيد .

رجالنا يعرفون أمثال رفاعه . ومصطفى مختار . ومظهر . وعلى  
مبارك باشا . وعبد الله فكرى . وبهجت باشا . ومحمود الفلكى باشا  
واسماعيل الفلكى باشا من العلماء والمهندسين . ومحمد الدردى باشا  
وعلى ابراهيم باشا . وعيسى حمدي باشا ، من الأطباء . والقواد  
الذين فتحوا السودان قبل أن يفتحه الجيش المصرى الفتاح الأخير .  
ثم ينسب ذلك الى اللورد كتشنر ويكون به قائداً من عظماء  
الرجال . يعرف رجالنا هؤلاء واخوانهم الكثيرين بأثارهم الماثلة فيما  
تركوا من الأعمال والمؤلفات والترجمات . ويعرفهم شباننا

باسمائهم فقط ، لأن ارادة خاصة طوت آثارهم العلمية ، وقطعت صلة النسب بين أسمائهم وآثارهم العملية . ولا تعرفهم ناشئتنا ، لأن هذه الارادة الخاصة أزالَت ذكرهم من كل شيء امام الناشئة

ويعرف رجالنا وشباننا غير هؤلاء العلماء الوطنيين ، العلماء الأوربيين من أبناء فرنسا وإيطاليا وسواهما . أمثال كلوت بك وكياني ولينان وموجل وهامنت ولمبير الخ الخ

فقل لمن يعرفون هؤلاء وهؤلاء . ولمن يذكرونهم بأثر قائم ، أو حديث مروى : هل رأيت مصر أمثالهم ، مصريين أو غير مصريين أثناء العهد الذي طنى عليها ستاً وثلاثين سنة ؟ ثم سل نفسك بعد ان تسمع الجواب ، وسل كل انسان : لماذا لم تر مصر امثالهم ؟ لأن العلم رُفِع من الأرض ؟ أم لأن الدنيا خلت من العلماء ؟ أم لا لهذا ولا لذلك ، بل لشيء آخر ؟

هل يقدر ان ترى مصر امثال هؤلاء العلماء ؟ نعم ذلك مقدور إذا عاد جوها كما كان صالحاً لهم . . . . ومن يعيد صلاح الجو غير ابنائها . اللهم ان الأمل كل الحياة . وحوادث الأيام غذاء الأمل ولا أمل إلا بالثقة . ولا ثقة إلا ان يغاب الحذر سلامة النية . أما الحذر فهو هنا . . . . هنا نحت كل حرف من حروف هذا البيت :  
أَسْرَبْتُ مَذْأَحَسَنْتُ ظَنِّي بِكُمْ  
والحذر سوء الظن بالناس

# القسم الاول

## ١

« فلما انتصرنا في الحرب فوجئنا بمعيان أيقظنا  
من النوم . وظهر لنا ان المصريين لا يحبوننا .  
ولا يريدون الاتفاقيات بنا » (المسترأثرههور)

### وطنية الفلاح وآماله

نكتب هذه المقالات مستمدين حقائقها من الكتاب الذي  
رقته يد الزمن خلال ثلث قرن اجتازته مصر ووقفت اليوم على  
طرفه . تريد أن تستأنف عهداً غيره . وتغلق بابه لتفتح لها باب  
حياة خير من حياتها فيه

وإذ كانت الحجة القوية لخصوم معمر السياسيين أن المصري  
قضى ذلك العهد راضياً ، بل مقدساً للذكر ، مسجحاً بالحمد . لا يجد  
سبيلاً للشكر غير الاعتراف بالعجز عن الشكر . وكانوا لا يرون  
هذا المصري الراضى المطمئن إلا في شخص الفلاح . حسن أن  
نبدأ الكلام في حال الفلاح وآماله ، وشموه ووجدانه . بل  
حديثه لنفسه وهو اجنس الرجاء الذي يتأجى به قلبه وربه في خلوته

وساعة ينبطح على أرض الحقل ، وحين يتصل بصره بالسماء ، فيرى جمال الجو ، ونعمة النيل ، وفيض الخير الدافق ، فيقول في نبجواه :  
يا رب لماذا لا يكون لي ، أنا المصري هذا الوطن الجميل خالصاً ؟

قال المستر « ارثر هور » مكاتب جريدة « التيمس » في الشرق الأوسط في أولى مقالاته التي كتبها عن « الاضطراب في مصر » : « فلما انتصرنا في الحرب فوجئنا بعصيان أيقظنا من النوم . وظهر لنا ان المصريين لا يحبوننا . ولا يريدون الارتفاع بنا » كذلك قال هذا الكاتب . وفي قوله معنى يدل عليه مفهوم عبارته . فكأنه أراد أن يقول : ان العصيان لم يكن منتظراً لانهم فوجئوا به . أي ان المظنون بل المعتقد كان خلافه . وقد كان هذا العصيان عاماً ، وكان مفاجأة ، فلا بد أن يكون الشعور بأسبابه الطبيعية عاماً أيضاً . ولا بد أن يكون الذين فوجئوا به على خطأ في جهل أسبابه أو تجاهلها . إذن : لم يكن الفلاح الذي كان شديداً في هذا العصيان راضياً ولا مطمئناً . ولم يكن يجد من نعمة التمتع بحرية الوطن بديلاً

بل يدل المفهوم على معنى أكبر من هذا المعنى . ففي العبارة ما ظهر من أن المصريين لا يحبون معارضتهم السياسيين . ولا يريدون الارتفاع بهم فكان عدم الحب كان خفياً على هؤلاء

المعارضين من قبل . وكأنهم يريدون أن يقولوا الآن : ان مازعمناه من أن الفلاح حامد شاكر . وأن نور التقديس يسطع في جوانب نفسه كان زعماً باطلا . ولا نظن المستر « ارثر هور » يرى بعد هذا أن يكون الحب ضرباً من ضروب الطاعة التي تقضى بها محكمة أو مجلس . أما إرادة عدم الانتفاع فان لها سبباً تراه كل عين في الصورة التي تشهد بها حالة مصر العلمية والتجارية والصناعية والاجتماعية والأدبية . فان لهذه الصورة لساناً ينطق فصيحاً بشرح قيمة الانتفاع في ثلث قرن كامل

وقد لا نعدم معترضاً يقول : ان هذا كلام نظري . أو أثر حالة محدودة جاءت في الزمن الأخير اضطراراً أو خطأ بغير قصد إذن : نرجع الى الحقائق في حينها البعيد والقريب

استقبلت مصر أياماً قضى بها الزمن منذ سنة ١٨٨٢ ، ولم تكذب نجتاز حوادث تلك السنة والستين قبلها حتى بسطت يدها للعمل ، ورفعت صوتها بالحجة . وما كانت يدها المبسوطة في معاهد المدن بأسبق حركة منها في حقول الريف ، ولا كان صوتها المرفوع في قصور العواصم بأعلى منه في أكواخ القرى . ولم يبن هذا الزمن الذي نحن فيه الآن ، وبين الوقت الذي وقعت فيه حادثة « الجبلش » يوم استمرضه سمو الخديو عباس في الحدود ؛ لقد كان ذلك الوقت

في أول عهدنا بما قضى به علينا . فليسألوا الحق : لماذا جرّك كبراء  
 المدبرين مركبة الخديو عباس يومئذ ؟ ولماذا أغدق عليه البريد  
 والبرق رسائل الشكر من أرجاء القرى وأعماق الريف ؟ أما جواب  
 الحق فهو أن وطنية الفلاح العريقة ، أرتة موطن الشكر من  
 الوجوب فأعرب عن شكره برسائله . وأن وطنية المتحضرين  
 الراسخة أرتهم موطن الحمد من اللزوم . فجزوا مركبة أميرهم الشاب  
 كان الفلاح يخرج من داره الى حقلة وفي يده حبل ماشيته ،  
 فيلذّ له أن يقف وتقف الماشية وراءه ، اذا اتفق أن رأى قارئاً من  
 أبناء القرية يطوى صحيفة في يده . وما كان يقف ليسأله ما بها من  
 الأخبار لأول مرة . بل ليسأله : أية الصحف هي . أمن الصحف  
 الوطنية ؟ فاذا علم انها ضالته استحلف صاحبه أن يقرأ ليسمعه آية  
 الاخلاص لمصر ، غير قانع بالسؤال عن أخبارها . وإذا ذكّرتها  
 الفلاحون فيقف قارئهم موقف المعلم . ولكنه لا يلتقي درساً ، بل  
 يتذاكر وإياهم سورة الوطنية المشتركة ، وآية الاخلاص للوطن ،  
 يتناول وصف الفلاحة أعيان البلاد ووجهاءها وعمدها .  
 أولئك الذين يشتركون في صحف السوء بما يشبه الأمر المقضي به .  
 غير أن مكاتب البريد في أرجاء القطر تعلم كيف كانوا يرفضون هذه  
 الصحف كلما وقع حادث يهيج شعور الوطنية . بينما كانت تلك



الصحف لا تخجل أن تؤلمهم بقعة، وتجرخ شعورهم بجرأة .  
 وفي الحادثة المحزنة التي حملت وزرها سنة ١٩٠٦، تجلت وطنية  
 الفلاح المصري مشوبة بالكمد، ممزوجة بالدمع الذي جرى مجرى  
 الدم المراق . فكانت القرى كالرجل تغلى بنار الوطنية، وكان  
 ضوؤه هذه النار يسطع في الصحف جماء، وكان يريقها يلعب على  
 أسلاك البرق، وضوء هذه الوطنية هو الذي نفذ الى أقطار  
 الغرب كافة فبذد ما نسجت يد التضليل، واستقامت به الحقيقة  
 التي حرقت عن موضعها .

ولم تكد شمس الوطنية تتوارى بحجابها بين جوانح الفلاح  
 المصرى، حتى أشرقت يوم النكبة بفقد المغفور له مصطفى كامل .  
 ولعل المائتم الذى أقامته الأمة كلها حزناً عليه، أنطق دليل على  
 أن المصرى الفلاح وغير الفلاح لا يرضى غير مصره، ولا يحب  
 سوى أمته

لم يكن مصطفى نبياً أمر الله بطاعته . ولا كان ملكاً يستوجب  
 الطاعة على العباد بالجبروت المطلق، ولا كان ذا جاه يرهب الناس  
 بجاهه، ولا مال يستهوى النفوس بماله . ولكن الأمة أطاعته  
 وأحبهته، وسمعت منه ووثقت به . على حين ان بينها الامراء ممن  
 لم يبلغ امارتهم . واصحاب النفوذ ممن لم تكن له سطوتهم . وخزنة

الأموال ممن لم تكن له أموالهم . ولم يكن مصطفي ساحراً ، ولا ماكرأ . فكيف وجد النصر والتأييد في القرى والمدن ؟ وكيف هتف الفلاح وابنه وامراته باسمه وراء المحراث ، وفي طريق القرية وعلى سطح الدار ؟ كان ذلك وهو حيّ ينننا ، لأنه نفذ الى مقر الوطنية من القلوب ، ولأنه هتف باسم مصر وهو أحب الاسماء اليها ، وأغلاها عندنا . فهتفنا باسمه في كل مكان . أما جنازته يوم مات فقد شيعها في القاهرة آلاف الفلاحين الذين جاءوا من أبعد قرى الريف في شمال القطر وجنوبه . بل كانوا يرون أن حرمة عليهم وحتم في تشييعه ، يقضيان أن يطلبوا بالسنة البرق تأخير الجنازة حتى يدركوها . وأما مآتمه فقد كان مآتم الأمة . فلا مدينة ولا قرية إلا كانت حزينة مكتئبة ، ولا دار ولا معبد إلا وجبت فيه التعزية والبكاء ، وعقدت مجالس الترحم والدعاء . وقد لبثت القرى والمدن في مآتمه أربعين يوماً

ليس صعباً أن يراجع الناس صحف مصر في عشر سنوات بين عام ١٩٠٤ و ١٩١٢ - فانهم إذا فعلوا رأوا الفلاح المصرى ظاهراً أبداً بين جماهير المحتجين على ما وقع خلال هذه السنوات وليسأل المنصفون : كيف كانت قرى الريف وبلداته تنور بالوطنية أيام حادثة « الكاملين » وما تلاها من سوق الوطنيين الى الحاكم

كما يساق القتلة السافكون . وجرمهم هو جرمهم الذى لايزالون  
يقترفونه ، بل الذى تقترفه الأمة كلها اليوم ، هو الألسنة الوطنية  
والأقلام الوطنية . ثم ليسألوا كيف كانت قرى الريف وبلدانه  
تقور وطنية يوم عرضت مسألة « القناة » ووقف نواب الأمة لها  
موقفهم التاريخي المشهود

أكان الفلاح خلال هذه الأيام كلها راضياً أم غاضباً ؟ نعم : كان  
راضياً . ولكنه رضا المؤمن يقبل القدر ويسأل الله اللطف فيه  
كابد الفلاح المصري من نظام الري ما أصابه بالنكبة في  
خصوبة الأرض ، وجودة الزرع . ولم يقطع عهد الفلاح بما كان  
لأرضه من الخصوبة ، ولزرعه من الجودة ، قبل الزمن الذى جاء  
فيه هذا النظام . فالفلاح يعلم اليوم أنه أصيب في المقتل من حياته  
الاقتصادية . يعلم أن بطن الأرض امتلأ ماء ففسد ، وأن  
متوسط محصول القطن أصبح ثلاثة قناطير ، وقد كان  
في أيامه الماضية ستة قناطير . ويعلم أن الأرض الواسعة لم تزل  
بوراً في وطنه ، وهو في حاجة إليها . ويعلم أن الآفات سلطت  
على زرعه ، لا تقمة من الله ، بل أثراً لازماً لفساد الطرق التي  
اتخذت لتوزيع الماء . يعلم الفلاح أن زينة الظاهر تنبي بخبر  
مكذوب ، وأن وراء هذا الظاهر باطناً هو الذى يعرفه ، لأنه هو

الذى يشقى به ، ويصلى ناره ، على أن هذا الفلاح أدرك أن العلم  
حقٌّ مباح له منذ كان المغفور له محمد على باشا يأخذ ابنه ليعلمه .  
ثم تلفت حوله فإذا هو محروم من العلم . لأن سياسة التعليم قضت  
أنه ليس أهلاً للإنسانية التى يتخذ العلم زينة لها  
هذا بعض ما كابده الفلاح فيما قبل السنوات الخمس الأخيرة .  
وهذه وطنيته وشعوره ، فإن كان بعد ذلك راضياً ، محباً ، مغرمًا .  
كانت مسألة فيها نظر ١٠٠٠



## ٢

« ولكن عروة المواطف التي تربط مصر  
بتركيا كانت على وجه عام أقوى مما كان مظهرها .  
وذلك رغم عدم الرغبة في سيادة الأتراك »  
المستر آرثر هور

### مصر وتركيا

كما تحرك المصريون في سبيل آمالهم ، استطابت الصحف  
واستطاب بعض الكتاب والساسة أن يقولوا : إن هذه الحركات  
ليست إلاّ حينئذٍ لتركيا ، وأن هذا الحين ليس إلاّ قفزة المنزع  
الديني .. ولكن الكلام عن آمال المصريين في حركاتهم ، لم  
يكن خاصاً بصحف انكلترا وكتابها وساستها . وإنما كان خاصاً  
بهم أن يتجافقوا الحلقى في وصفها

إن مصر الاسلامية تعلم من حكمة الاسلام وعدله ما يجمع  
لها الاستقلال المدني على أتم وجوهه ، والتبعية الروحية على أتم  
وجوهها أيضاً . وقد أنصف المستر « آرثر هور » مراسل التيمس  
في الشرق الأوسط الحقيقة والتاريخ إذ قال : « ولكن عروة  
المواطف التي تربط مصر بتركيا كانت على وجه عام أقوى بما :

كان مظلوناً . وذلك رغم عدم الرغبة في سيادة الأتراك .  
 غير أن المسألة تحتاج إلى بيانٍ تحسّر به شبهة الباطل عن  
 وجه الحق . فالذين يعرفون مصر وشعبها ، والذين وقفوا على  
 تاريخ النهضة المصرية منذ كانت لمصر قضية في تاريخ السياسة ،  
 يشهدون أن الشعب المصرى لم يكن يأبى سيادة الأتراك المدنية  
 ليقبل أية سيادة أخرى ، ولكنه كان يأبأها ليكون سيد نفسه ،  
 وصاحب أمره . وهكذا كان الحكم الذى شرع الله له . لا فضل  
 لأحدٍ على أحدٍ إلا بالعدل والتقوى . وهيهات أن يرضى شعب  
 لنفسه ما يرضى للسلطة تنتقل من يدي إلى يدي ثمن أو بغير ثمن .  
 فكيف بالشعب المصرى وهو يحفظ قول « ابن الخطاب » حين  
 اقتصر لأحد المصريين من ولده « لمعرو بن العاص » : « متى  
 تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً »  
 إذا كان المستر « أرثر هور » لا يرى غير أن يشير إلى أن  
 مصر تأبى السيادة التركية ، فإن مصر نفسها تجهر بأنها تأبى كل  
 سيادة لأحد . بل أولى بهذا الإباء أن يكون ضرورةً بدئية .  
 لأن عروة المواطف القوية لم تصرفه عن تركيا ، فن البديهي أن  
 لا ينصرف عن غيرها لا سيما إذا انضم إليه ضعف المواطف أو  
 عدمها كما يشهد المستر « أرثر هور » نفسه بقوله : « فلما إتصرتنا

في الحرب فوجئنا بمصيانٍ أيقظنا من النوم . وظهر ان المصريين لا يحبوننا . ولا يريدون الارتفاع بنا ،

وقد لا يقتنع المعارضون إلا ببرهان أكثر وضوحاً ، وأوسع بياناً . فان كانوا كذلك ، قلنا : إن الاسلام يأتي أن يعيش بحلول العروة ، غير مستند الى ركن ليس أرفع منه إلا الله ، ولا يدفوقه إلا يد الله . وقد علم المسلمون في مصر وغيرها هذا الحكم من شريعتهم ، وهم ينظرون اليوم كما نظروا منذ سبعة قرون فيجدون بقية هذا الركن في تركيا . ولا منافاة بين أن يجتمع الاخلاص للدين في حدوده المشروعة ، والاخلاص للوطن في حدوده القومية . فالمصريون كثيرهم يريدون أن تبقى للمسلمين خلافة لا يتوسط بينها وبين الله شيء غير عنصر الاسلام ، لتتم الولاية الروحية ، وتستقيم عباداتهم وأوامر دينهم فيما بينهم وبين الله . ويريدون أن لا تكون لأحد سيادة مدنية عليهم ، ليشعروا بنعمة الحرية ، وهي أعظم نعمة في الحياة

نعم : يقول المصريون . نحن في عمل الدنيا المحض أولياء أنفسنا ، وفي عمل الآخرة المحض تابعون إلى ولاية المسلمين الروحية العامة . فنحن نريد أن تكون هذه الولاية ، وأن تبقى مصونة عن أن تكون فوقها يد غير يد الله . وليس لمن له بصيرة

أن يتأول هذا المعنى ليصرفه عن موضعه الى الشحنة الدينية ، فإن  
المثل قائم في المسيحية نفسها . فهناك ديوان الفاتيكان يأبى إلا أن  
يكون مستقلاً ، ويأبى الكاثوليكيون في كل بقاع الأرض إلا  
أن تكون له السيادة الروحية عليهم ، وأن يكون محفوظ الكيان  
قوي السلطان . فهل قال أحد أن هذه العروة الوثيقة التي تربط  
أهل الكنيسة بالبابوية نزعاً منهم الى الشحنة الدينية ، أو تفريط  
في سؤدد القومي ؟!

على أن السيادة التركية المدنية التي ألح عليها الزمن . وجمل  
ينقصها من أطرافها حتى كانت في آخر العهد بها كالخيط دقة ،  
وكالطيف مثلاً . لم تكن قليلة الأثر في مدافعة الأيام . فقد كانت  
على ما بها من ضعف ووهن عقبة في سبيل الحالة الجديدة « ١ » .  
وكانت النتيجة الضرورية لا تقطع ذلك الخيط الدقيق — لو أنه  
اتقطع قبل الحرب الكبرى — أن تهب مصر وحدها مجاهدة  
لنفسها حيث لا تعينها قوة المشاكلة في الشعوب الأخرى ، ولا  
ترفع يدها بحجة المبادئ ، والوعود التي خاقتها الحرب . فبقاء تلك  
السيادة الى الوقت الذي خاضت فيه تركيا غمار الحرب أفاد  
القومية المصرية فائدة لا يختص بها مسلم دون قبطي

(١) الحماية التي أعلنتها انكلترا على مصر في ١٧ ديسمبر سنة ١٩١٤



في مصر أمة تعرف أنها كانت سيده ، وتعرف أن صاحب  
السيادة يأنف أن يكون مسوداً . وفي مصر المسلمون يأخذون  
بأيدي اخواتهم في الوطنية ، عاملين جميعاً لغاية واحدة ، هي أن  
يكونوا سادة أنفسهم في وطنهم . فلا المسيحي يشمر في وطنه  
بأنه مسود ، ولا المسلم يشمر بأن هناك سييداً له ولابن وطنه  
الآخر . أما النجوى الروحية فلكل أن يناجي بها من شاء ،  
ولكل أن يعترف بها في حدودها ومعناها لمن أراد . هذا سر  
العروة القوية التي تربط عواطف مصر بتركيا . وان التاريخ يشهد  
أن المصريين وقفوا أمام العثمانيين مواقف كثيرة يطلبون فيها  
استقلالهم المدني ، بينما كانوا يحرصون كل الحرص على الخلافة ،  
ومجيبونها إذا دعيتهم لأمرٍ جليل لا يزيد سلطانها المدني عليهم .  
فهل غريب أن يقفوا هذه المواقف أمام غير العثمانيين ؟؟ إنها  
إذن : مشكلة لا تفهم !!!



### ٣

« انه لا يمكن قط أن تقوم حكومة حسنة مقام  
حكومة أهلية »      المستر لويد جورج

#### الحكم الزاني

الأشكال التي تتخذها صور الحكم في الشعوب ، تتلون  
بالوانٍ من الخصائص الفطرية ، أو الملكات المكسوبة بالوراثة ،  
أو بتجدي التاريخ ، أو العادة المألوفة التي لم يذهب بها طول أمد  
الاهمال

وان المشاهدة لتدل على أن الناس مفترقون في ذلك . فالجماعة  
التي لم تعرف من خصائص الحياة إلا الشعور الساذج بأنها موجودة  
على قدر المكان الذي يحتويها ، والزمان الذي يشتملها ، لا يصلح  
فيها حكم يعتمد على إرشادها لنفسها . فان مثلها كمثل الطفل تعوزه  
الرعاية في حركاته ، والتفويم في انتقال خطاه . ولكنك لا تجسم  
تلك الجماعة إلا فيمن تهبط بهم «الصدقة» من رؤوس الجبال . أما  
الذين تحملهم أرض المدائن ، ويكتنفهم عمران الحياة . فان مجرد  
اجتماعهم على هذا النحو يحملهم أهلا لأن يستقلوا بشأنهم ،  
ويعيشوا بأمره أنفسهم لا بأمره سوام . وقد لا تكون صلاحيتهم

للمثل الأعلى من الكمال تامة . ولكنهم لا يدركون هذا المثل  
الأعلى إلا أن يُتركوا لأنفسهم . ترفعهم لجة وتُهبطهم لجة ، حتى  
يحيدوا السباحة فوق غوارب بحر الحياة

في العالم الآن أم هي المثل الأعلى للحكم الذاتي في أجل معانيه،  
ولم يزل التاريخ ناطقاً أن هذه الأمم لم تصل الى ذلك إلا بعد أن  
تركت لنفسها . ولم يقل التاريخ قط ان أمة مغلوبة خرجت من يد  
أمة غالبة ظافرة منها بالتدريب على الحكم الذاتي الكامل . ولا  
قال التاريخ إن أمة فقدت حواسها وهي مقهورة حتى لم يوقفها  
القهر الى ما تجهل مما يجب أن يكون لها . كل الأمم التي وعاها  
صدر التاريخ وكانت مغلوبة شعرت في غلبتها بان الغالب سُلط  
عليها بحكمه وان سبيل نجاتها أن تحكم نفسها . وكان هذا الشعور  
مفتاح باب التفكير في الحكم الأصح . أليس ذلك كافياً لاثبات  
أهليتها لأن تكون لنفسها ، وأن تعيش لنفسها ، وأن تنفصل عن  
عداها لتنال الحق الطبيعي . وهو أن تبقى للوطن ويبقى الوطن لها ؟  
متى علم الرومانيون والداغاركيون الشعب الانكليزي أن  
يحكم نفسه بنفسه ؟ ومتى علم الانكليز الأمريكيين أن يحكموا  
أنفسهم بأنفسهم ؟ ومتى تلقى البولونيون والفنلنديون والقوقازيون  
وشعوب الملايا وغيرهم دروس الحكم الذاتي عن قياصرة روسية ؟

ومتى وعت شعوب أمريكا آيات هذا الحكم عن الأسبانيين ؟؟  
بل متى طلعت شمس الحرية في فرنسة بارادة الغالبين الذين تلقفتها  
أيديهم جيلاً بعد جيل ؟؟

التاريخ تجارب صادقة إن لم يكن قواعد تبنى عليها الأحكام  
الصحيحة . وإلى جانب التاريخ الطبايع المكسوبة ، والتقاليد الموروثة  
ولا ينكر حكم هذه الأفضية الثابتة إلا ذو غاية يمتقها العدل . أو  
جهل يرى منه العلم . أو عقل أعمى لا يبصر الحقائق . والتاريخ  
يشهد أن مصر كانت لنفسها مستقلة أكثر ما عاشت من عمر  
الدهر . وكانت لها تجارب في حكم الشورى أكثر ما رأت من  
الأحكام في حياتها . وكانت تقاليدها الشورية متصلة الحلقات  
بماضيها البعيد وعهدها الحاضر . فإن لم يقتنع المعاندون بشهادة  
التاريخ فليقتنعوا بدلالة التجربة . وإن لم يقتنعوا بهذه ، فليقتنعوا  
بآثار الملكة النفسية التي استلزمها التقاليد الموروثة . وإن لم  
يقتنعوا بهذه أيضاً . فلا أقنع المعاند إلا الله

ليست سطور التاريخ هي التي شهدت وحدها بأن مصر  
كانت في أقدم أيامها شورية على أكل مثال . بل شهدت الآثار  
الناطقة بذلك أيضاً . فقد صح أن قصر « لايرنت » الذي كان  
في إقليم الفيوم وكان مؤلفاً من ثلاث آلاف غرفة لم يكن إلا الدار

التي يجتمع فيها «مجلس الأعيان» للنظر في شئون البلاد كافة . ولما دخل الاسلام مصر ، دخل وفي يمينه علم الشورى ففضى أن تكون سبيل حكم الناس . وبقيت مصر إسلامية ، تقرأ كتابها الكريم ، وتمى أحكام شريعتها القويمة . ولم تنسخ آية الشورى من كتابها ، ولا رفعت أحكامها من شريعتها . وإذا كانت الأديان تطبع النفوس على غرارها ، وتستجد لها كيفيات وملكات لم تكن من قبل . وجب أن تقضى الضرورة أن الدين الاسلامى اكسب المصريين ملكة الحكم الذاتى ، وطبع نفوسهم عليها . هذا أهون الحكمين . أما الحكم العظيم الذي جاء به الاسلام فهو أمره لأهله أن يكونوا أولياء أنفسهم صوتاً لهم من عسف الغريب ، وحرصاً على ربحهم أن تذهب فيعيشوا أذلاء مقهورين

يتصل عهد مصر اليوم بأول عهدها بالاسلام ، فهي لا تزال إسلامية . وقبل ذلك كانت متصلة بعهد المجد العظيم أيام كانت سيدة العالم ، ومفيضة الحياة على الاكوان ، ومعلمة الشعوب أن الحكم الذاتى حق لكل شعب تخين كان قصر « لايرنت » مقر شوراها . والان فمهدها بالحكم الذاتى فى أمثلته الحديثة ليس بعيداً .

كان لمعمر لمهد محمد على « مجلس المشاورة الملكى » و« المجلس

المخصوص ، وهو بمثابة مجلس الوزراء . وكان لها « مجلس نواب » لمهدي اسماعيل وتوفيق . وكان لها « مجلس الشورى » و « الجمعية العمومية » حتى استعيض عنهما بالجمعية التشريعية . وكانت لها مجالس المديرات التي لم تزل باقية . وقد لقي مجلسا النواب ومجلس الشورى والجمعية العمومية من تصاريف السياسة ما لقيت . فان الأولين قتلا في مهدهما ، والأخيرين عاشا يحزبان على الاحسان بالاساءة . وعلى الاساءة بالاحسان . كانت كل حجة تصدر منهما على أن الأمة خليفة بالحكم الذاتي الكامل تعد ذنباً يستحقان عليه عقوبة الطعن . وتقصاً يتخذ دليلاً على عكس المطلوب « ١ » . هكذا وقفت السياسة للأمة هذا الموقف الغريب . وكان النصفون

---

( ١ ) عقد اللورد كرومر في تقريره سنة ١٩٠٥ فصلاً للكلام عن مجلس الشورى والجمعية العمومية فقال : « ان مجلس الشورى تقلب على ثلاثة أطوار . الطور الأول كان في السنين الأولى من سنى الاحتلال وفيها لم يكن أحد يلتفت اليه . والطور الثاني ابتداء سنة ١٨٩٢ - وفيه تقاذفت المجلس الاحوال حتى سلك سبيل العداوة للحكومة ولكن زمان هذا الطور لم يدم طويلاً لحسن الحظ بل مضى الآن وانقضى وابتداء الطور الثالث فأبدى الاعضاء فيه مزيد الرغبة في معاونة الحكومة على الإصلاح المصرى »

وقال في تقريره سنة ١٩٠٦ : « لا خلاف في أن مجلس شورى القوانين كان في زمن من الازمان يحزى على خطة مصبوغة بالعداوة والشبهات :

يسخرون من هذا الموقف أكثر مما يعترضون عليه . لأنه كان موقف الرجل يقيم نفسه ولياً على آخر فيضمر له ما شاء . هواء ثم يعجز عن أن يستقيم على الصدق فيما يقول ويفعل

لم يخلق الله أمة — منذ خلق الدنيا — لتعلم أمة أخرى كيف تحكم نفسها بنفسها . وما خرجت أمة قط من يد أمة أخرى وفي

وربما لم يكن ذلك منه عن عمد وقصد . بل عن خطأ في ادراك سياسة الحكومة العمومية فتأتى عن ذلك ما لا بد منه في مثل تلك الحال وهو حدوث غيظ كثير وكدر شديد وتجاهل الحكومة لآراء المجلس . ولكن من يقابل الأمور التي أشار المجلس بها بعد عدوله عن خطة المداوة وما فعلته الحكومة بتلك الأمور يجد أن المجلس استفاد كثيراً من توثيقه عرى الصداقة مع الحكومة سواء كان من جهة حفظ كرامته أو زيادة تقوده »

وقال السيد غورست في تقريره سنة ١٩٠٨ : « ذكرت في تقريرى الماضى ان اختبار السنوات الاخيرة دل على انها — مجلس الشورى والجمعية العمومية — ناهجان نهجاً قوياً وانهما اظهرا في كثير من الاحوال مقدرة في المناقشات التي دارت فيهما على المشروعات التشريعية التي عرضتها الحكومة عليهما . ولذلك يسوءنى جداً الآن أن أقول ان الخطة العمومية التي جرى مجلس شورى القوانين عليها وأعماله من حيث هو مجلس استشارى كانت الانبى عشر شهراً الماضية مما لا يقوى آمال الذين يتبنون توسيع سلطته تدريجياً فقد أتى أخيراً أعمالاً يصح الاستنتاج منها أنه أخذ في الرجوع القهقرى وأنه لم يحسن القيام بنصيبه من الاعمال الادارية

يدها اجازة هذا الحكم بعد أن تكون قد نالتها بالامتحان . ولكن الذي وجد وقامت عليه شواهد الحس والعلم والتاريخ أن الشعوب تخرج من أيدي غالبيتها كما يخرج المريض من فراش المرض ولا تكون قد شفاها دواء من مرضها بل تكون هي قد علمت الدواء وعلمت انه محرم عليها فشرعت تطلبه لتستطب به

ان الأمة التي يقال انها عليقة تحتاج الى المعالجة بيد أمة صحيحة ليست بين الأمم التي تنمر الارض . تلك أمة ضربت في الجاهل مع الوحوش فلها فطرة وحشية . فاجتها قبل كل شيء أن تستأنس وتراض على طبائع الانسان . ومثل هذه الأمة لا حيلة في أن تتسلط عليها أمة أخرى . لا حيلة في ذلك ولا وافي

---

كما كان يحسنها قبلا فقد أضاع وقتاً طويلاً في مناقشات عقيمة في الحكومة النيابية لم تأت بفائدة ما في تمهيد السبيل للنظر في هذا الامر ولا أظهرت أدلة جديدة على استعداد الامة للحكم الذاتي بل أضاعت وقتاً وتعباً كان يمكن صرفهما في وجوه أفضل وبعد الاخذ والرد وتأجيل المجلس شهرين اتفق المجلس على قرار يطالب به الحكومة باعداد مشروع ينحول الامة حق الاشتراك الفعلي مع الحكومة في ادارة شؤون البلاد الداخلية والقوانين المحلية بحيث يكون قرار الامة نافذاً المفعول في الشرائع والقوانين التي تسرى على الوطنيين وفي فرض العوائد والضرائب ثم قال بعد ذلك : « وفي شهر فبراير الماضي وافقت الجمعية العمومية على قرار شبيه بالقرار المتقدم »



لها من أن تبلغ بها غاية المتسلط القاهر ، وهي الادماج والتسخير  
يقول المستر لويد جورج : « انه لا يمكن قط أن تقوم  
حكومة حسنة مقام حكومة أهلية » . هذا القول حسن . معناه  
انه لا بد ان تكون الحكومة التي تقوم مقام الحكومة الاهلية  
حكومة غير حسنة أي قبيحة .

فهل من إنصاف الحق أن يكون العمل بهذه القضية في  
مكان دون مكان ؟؟؟ تلك إحدى عجائبهم !!!



## ٤

« أن الأمم التي بلغت فيها همه الانسان منتهاها .  
هي مابجأ الحياة الأدبية الصحيحة حيث تثبت  
الأخلاق وتبقى المحامد » ادمون دى مولان

### روح الأمة

هناك مقياس للحياة . غير الثروة ، والعلم ، والنشاط في طلبهما . وهذا المقياس هو روح الأمة  
أن المصباح يرسل نوره ضعيفاً أو قوياً . ولكن العين توهي  
لصاحبها سبب ضعفه وقوته . توحى له أنها ترى شيئاً مكنوناً هو  
زيت المصباح . وانه يضيء على قدره . فلو أن أمة كانت أمينة  
على خزائن الأرض ، قائمة على بيوت الحكمة والعلم . ثم لم يكن  
روحها ذا نور ساطع يدل الناس عليها لما أغناها العلم والمال أن  
تلتبس وسيلة يرى الناس في مرآتها جمال الكرامة ، وجلال الآباء  
وعزة النفس ، وعظمة الرأي والعمل . وأن مكان الأمة المصرية  
من هذه المنزلة ليس منكوراً . فهو في مثل ضوء الشمس وضوحاً  
والعالم المبصر لا ينكر ما ينكره الأعمى

مضى عهد غير قصير وقفت فيه مصر موقف السلم الظاهر

ولكنها طوت هذا الزمن كله تحارب الحوادث وتنازل الأيام .  
ولم تتقلد سلاحاً إلا بقية عزم صادق ، وأنفة صحيحة ، ويقظة  
دائمة ، وعقل يكشف لها عن أفانين الخلل التي يتدعها الدهر .  
ولا يقول أحد إن مصر المجاهدة خرجت مقهورة في معركة من  
معاركها السلمية الدائمة . ذلك بأن روحها سليم لم تعرضه الأيام .  
ظاهر لم تدنس الحوادث . مصقول الجوهر . ينتفع بما يضر ،  
ويهدى بما يضل

ما كانت الأمة المصرية قبل العهد الأخير مخلوقات صورية  
تقبل كل روح ينفع فيها . ولكنها كانت شعباً تام الخلق ، ناهي  
الجسد والروح ، ممتازاً بخصائصه ومقوماته . كانت شعباً مدركاً  
أن هو من الوجود . وأن يستحق أن يكون موقفه بين الشعوب  
وكان لا بد لهذه الأمة أن تكون كذلك . إذ لم تجهل من تاريخها  
القديم أن لها على العالم حق الاستاذ على التلميذ . فلا أقل من أن  
تتال المساواة لغيرها وفاء ببعض هذا الحق . ولا جهلت من  
تاريخها الحديث أنها تعلمت حتى جمعت تراجم غيرها . وأثرت حتى  
جمعت تبليغ الاقطار القاصية بتجارتها وغلاتها ومصنوعاتها ،  
وقويت حتى أخضعت الأشداء وأخافت الأقوياء

قال المسيو « تيرس » وزير خارجية فرنسا في كتاب إلى

المسيو « جزو » سفير فرنسا في لندن : « ان الباشا — محمد علي — قادر أن يشعل نار الحرب لأي تهديد يقع ، أو حصار يحدث ، أو أي عمل آخر ، نخذ حذرنا من ذلك . وأيقن أن محمد علي يجتاز جبال طوروس . ويلقي أوروبا في هاوية الخطر إذا هوجت الاسكندرية أو أية جهة من جهات القطر المصري الهاشجة أو التي توشك أن تهيج . »

مصر التي لم تجهل هذه الصفحة من تاريخها الحديث لا تقذف الى الضمة والهوان إلا أرجعتها خصائصها الى الرفعة والشرف . فان بينها وبينها ذمة مرعية ، وتسبباً محفوظاً

جوهرة الأكوان . مصر التي على شاطئ البحر الأبيض ، التي عشقها الفرس والرومان والعرب . لم تزل دار الغريب وماجأه لا يجد في الدنيا غيرها بديلاً من وطنه ، ولا يجد في الاقطار صدر أرحباً ، وحضارة باردة كصدرها وحضائنها . مصر هذه تعلم ان لها هذه المنزلة عند الناس فتعلم ان تربتها ذهبية ، ونيهاً غدير ، وأقفاً صحو ، وشمسها مبرقة . تعلم ان في هواها شفاء السم ، وفي اخلاقها عزاء الغريب . وان الذكاء والألفة ، والثبات والصبر ، صفات مخلوقة في ابنائها ، مكسوبة في غيرهم . وقد جعلتها هذه الخصال وطناً يلوذ به من لا وطن له . وكانت كذلك منذ أقدم

أيام التاريخ . أفلا تكتسب مصر من جيرانها ، ومن الوافدين عليها  
قدرة على تناول الحسن من آرائهم وفعالهم .

نهض « محمد علي » بمصر منذ قرن وربع قرن . ويوم تحرك  
بنهضتها استقدم العلماء من أوروبا مستعينا بهم على ما يبنى ، ولم يبن  
محمد علي هؤلاء العلماء الذين استقدمهم بروجاء يمشون فيها .  
ولكنه خلطهم بالآمة ، وهم كانوا أوعية علم ، وخزائن فضل ،  
وأمثلة لمحاسن الأخلاق . فهل كان المصريون يومئذ مخلوقين بنير  
أعين تبصر ، وآذان تسمع ، وقلوب تمي ؟ أو كانت لهم أعين  
وآذان وقلوب فانتفعوا بسيرة أولئك الرجال وأضافوا جديد  
منفعتهم إلى قديم المجد الذي ورثوه عن آباؤهم . على أن هؤلاء  
الرجال كانوا بين الأمة أساتذة معلمين ، فكيف لا تصقل روحها  
بصقال العلم الذي أفاضوه عليها ، والعمل الذي دربوا عليه ؟ وما  
زال شأن الولاية بعد ذلك كشأن محمد علي . وكان إلى جانب هؤلاء  
العلماء أهل النشاط والفضل من الأجناس الوافدة على مصر .  
تكتأف وإياها على خدمة الوطن الذي تناسل فيه المصريون .  
والذي رحب صدره لغيرهم فكان لكل غريب وطناً ثانياً أعز  
عليه من وطنه الأول .

ولدت مصر هؤلاء جميعاً ، ووقفت على ما عندهم من الرأي

في الحياة ، والعمل للسعادة . ونظرت في كتب العلماء ، وتاريخ الأمم ، ونهضات الشعوب ، وأدركت ما لها من أسباب وعلل . ثم حادت تقارن ذلك بماضيها . فإذا هو صورة منه . فلما شرعت تقارنه بحاضرها هالها بعد المسافة بينهما . على حين أن صفاتها خليقة باتحاد الصورتين . ومنزلتها من الرقي حرية أن تكون بين منازل الاعزاء

رزقت الأمة روحاً سليم التكوين ، رفيع المكانة ، كامل الخلق فكان لها حصناً يرد عنها عادة الزمن ، وقوة تصرع الأيام كلما أغارت عليها فترجع مخذولة خزيانة . فروح الأمة المصرية هو الذي أبقاها الى اليوم فلم تزل منها حيل الأيام شيئاً . وهو الذي صان وحدتها فلم تصل اليها يد التمزيق ، هو الذي أيقظ فؤادها فلم تنصب لها حباله إلا تيننت موضعها وقطعت خيوطها

أكان ينتظر من أمة استأثرت بالذكر الأسمى من جيل ما أسدى المجرىون والعرب للمدنية فضربت بسهم وافر فيما أخرجت للملم مدنية القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، أن تحمل بين جنبها روحاً متخاذلاً ، لا يثبت به موقفها أمام الأعاصير والزلازل ؟؟  
يؤثر عن « إدمون دي مولان » قوله : « إن الأمم التي بلغت فيها قمة الانسان متنهاها هي ملجأ الحياة الأدبية الصحيحة

حيث تثبت الأخلاق وتبقى المحامد ، . وقد شهد الله ان الأمة المصرية إحدى هذه الأمم . فان مبلغ همة إنسانها أن غالب الأيام فقلبها . وصادم الحوادث فصدما على كثرة إلحاحها ، ودوام انصبابها . ومن سوى هذه الأمة خليف أن يكون ملجأ الحياة الصحيحة ؟ وهل يضيرها ان أصابتها المدنية السياسية برشاش الفساد ؟ هبها كذلك ، ففى الباطن جوهر تقي طاهر

إن الله شهيد . لئن لم يسلم الناس أن هذه الأمة كذلك ، فلا كانت كذلك أمة أخرى . وانها إذن لبدعة تستحق النظر .

فهل من متعظ ؟؟





« ان القضاء على لغة أمة قضاء على قوميتها »  
ما كس نوردو

### القومية واللغة

إذا صورت القومية جسداً فاللغة روحها . وإذا انفصل الروح  
عن الجسد فارقته الحياة

وقد صدقت شواهد التاريخ ، ولم يكذب نذيره للناس أن لا  
يناموا عن لغتهم خشية أن تفتنى قوميتهم معها . في التاريخ  
شواهد الصدق ، فهو يقول : إن أول ما يكون هلاك اللغة أن  
يتخللها دخيل لغة أخرى ، فيحمل معه إلى نفوس أهلها طبائعا غير  
طبائعتهم ، وعادات غير عاداتهم ، وآدابا غير آدابهم ، تمكنها منها  
تلك الألفاظ السهلة السيالة التي تخالط لغتهم الأهلية . وكما قوي  
هذا الدخيل انبسطت به الألسنة ، واعتادت معانيه الأذهان ،  
فتنقبض اللغة الاهلية شيئا فشيئا ، ثم تذوب أمام غلبته . وهناك  
تودع الأمة قوميتها وتقابل قومية جديدة لا تبصر فيها تاريخا  
خاصا ، ولا خلقا خاصا ، ولا وطنية خاصة

أين قوميات الأمم القديمة والحديثة التي هضمت لغتها معدات



اللغات الزاحفة عليها ؛ أين قومية هنود أمريكا وأهل المستعمرات الأوربية من وسط أفريقيا ؛ وأين قومية « المغاربة » من أبناء « زنانة » و « كتامة » وورثة « القرطاجيين » ؛ وأين قومية غير هؤلاء ممن كانوا قديماً وحديثاً أصحاب وطن عزيز الجانب ووطنية ناهضة الجناح ؛ لقد هضمتها أيدي الغالبين حين هضمت لغاتهم لغاتها . واثك لتحتال بكل حيلة لترى خيط الصلة بين من يسكنون تلك البقاع اليوم وبين آبائهم الأولين ، فلا ترى ذلك الخيط ، لأنهم كانوا أمماً روحها اللغة فانتسخت لغاتهم فسخوا أمماً أخرى . ثم بادت لغاتهم الجديدة فسخوا مرة ثانية . هكذا يروى التاريخ وتصدق روايته . وانه ليحدثنا أيضاً أن الفاتحين إنما يفلبون الأُم ويخضعونها بسلاحين : اللغة والسيف

أصبحت اللغة العربية لغة مصر . ومضت عليها القرون الطويلة فصارت وعاء لآداب الأمة وعاداتها وأخلاقها وتاريخها وصارت قوام شخصيتها ومساك جنسها وصارت لسانها في التأليف والكتابة والمحاطبة . وفي كل حاجة للغة فيها وساطة . ولعل اللغة العربية أقوى اللغات على الذيوع وبسطة السلطان . وأقدرها على الثبات والظفر بالفوز على أحداث الزمن . أما قوتها على الذيوع فلا لها لغة دين بجانب أنها لغة قومية . ولغة الدين لا تحتاج إلى

شيء يمينها على إخضاع غيرها من اللغات متى أقبلت النفس على هذا الدين . وأما أنها قادرة على الثبات فلائن لها من بقاء القرآن آخر الدهر نصيراً شديداً البأس بجانب القومية وهي النصير العام . واثق لتدرك مقدار أثر الدين في حفظ اللغة العربية إذا سمعت هذه الدعوى المقلوبة :

قال اللورد دفرين في تقرير خاص بالتعليم في مصر وضعه سنة ١٨٨٢ : « وأخال ان أمل التقدم ضعيف ما دامت العامة تتعلم اللغة العربية الفصحى التي هي لغة القرآن »

على رغم أن للأمة المصرية من لغتها تلك القوة وهذا الثبات . فقد وجدت هذه اللغة في وطنها خلال ثلث القرن الأخير ما لا يحده الخصم من خصمه . ولكن الأمة لم تكن تخضع لما يفسد عليها لنتها ثم ينتهي بفنائها . بل كان كل سهم يرمى به قلب اللغة ، يحد دواء عاجلاً يرد عليها العافية أكثر مما كانت . ويميد إليها البهجة أعظم مما فقدت . ويزيدها تمكيناً . ويزيد نهضتها صعوداً . وسوقها دواجا . ولا ريب ان لغة الأمة تمشي الآن بين صفوف من الجلال لم تكن تمشي بينها من قبل

ظهرت خصامة اللغة الوطنية في دور الحكومة فأغفل أمرها في المخاطبات ووضع التقارير وتأليف القوانين واللوائح . ولم يبق

لها ظل إلا فيما لا بد منه لا لبلاغ الأمة ما تريد الحكومة أن تبليها من أعمالها . والحكومة مصرية والوطن مصري . واللغة العربية لغة الحكومة الرسمية الوطنية ، ولغة الوطن التي لا عوض عنها . ولكن حكومتنا عاشت ثلث قرن تقابل لنتها الرسمية بوجه عابس ، وتصالحها يد مقبوضة . كانت الحكومة تعدل عن لسانها الرسمي إلى لسان آخر أجنبي . ولا نعرف حكومة وطنية لها لغة خاصة تفعل ذلك إلا حكومتنا

القوانين توضع أعجمية ، وتبحث بلسان أعجمي ويقضى بتنفيذها وطاعتها وبعد ذلك تترجم بلغة الأمة . فإذا سألت : لماذا يكون ذلك ؟ فلا تجد جواباً إلا أن هناك لغة غريبة يراد أن تكون أصلاً واللغة الرسمية فرعاً . أو رأساً واللغة الوطنية ذيل . وإذا سألت : لماذا لا يعرف الموظفون الأجانب لغة البلاد لأنهم المحتاجون إلى الوظائف ولأنهم موظفون في حكومة البلاد ؟ فلا تجد جواباً إلا أنهم أرادوا عكس الآية وكفى

وظهرت مخاصمة اللغة العربية في التعليم منذ سنة ١٨٩١ —

فقد كانت اللغة العربية لسان التعليم في المدارس كلها . وفي هذه السنة دخلت اللغة الأجنبية المدارس الابتدائية ، وُجِعلت لسان التعليم في دراسة علمي الأشياء والجغرافيا . وفي سنة ١٨٩٢ دخلت

للمدارس الثانوية وجعلت لسان التعليم في دراسة العلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا . ولما جاءت سنة ١٨٩٧ لم يكن للغتنا أثر في التعليم بهذه المدارس

وإذا كان يشفع في هذا أن إهمال اللغة في الدرجتين الأولى من درجات التعليم لا يضرها كثيراً لأن حضارة الأسر لأبنائها كفيلاً بحفظها . فانا نتكر أن إشراب النفوس الناشئة لغة أخرى منذ الحداثة ، لا ينزل هذه اللغة من نفوسهم في المكان الذي يجب أن تنزله لغتهم القومية . على أن سياسة التعليم التي رأت أن تنسخ ظل اللغة العربية من التعليم الابتدائي لتزح جذورها من الصدور نسخت ظلها من التعليم العالي أيضاً . والنتيجة المقصودة أن تبقى اللغة بعيدة عن المنهج العلمي فلا تكون لغة علم كما لا تكون لغة قومية

كانت لغة الأمة لسان التعليم في مدرسة الطب الى سنة ١٨٩٧ ثم أغارت عليها اللغة الأجنبية في تلك السنة . كانت لغة البلاد لغة التعليم كله في صغريات المدارس وكبرياتها ، فأينا وقتاً طردت فيه لغتنا من مدارسنا كافة . ولولا أن الأمة شديدة الغيرة على قوميتها فهي شديدها على لغتها ، لما عادت اللغة العربية لساناً للتعليم في بعض المدارس

ومن عجيب ما حدث أن التقرير الذي وضعته لجنة التجارة والصناعة بياناً لنتيجة عملها وضع بلغة أجنبية ثم ترجم إلى العربية . وكان هذا أيضاً شأن لجنة التعليم الأولى في تقريرها ، وهو شأن كل لجنة تؤلفها الحكومة المصرية لتؤدي عملاً

أما موقف الأمة فيدل على جلاله هذا الفخر الذي وطأ صدر الأيام ، والذي استحقته بفضل الغيرة الدائمة على لغتها والجهاد الدائم لنصرتها . وقد ذاعت الصحف الوطنية فأدت نصيباً غير قليل في خدمة اللغة . هذبت الأساليب ، وأدتها إلى الأقسام مستقيمة . وثررت المفردات الفصيحة ، فوعتها الأذهان وظهرت في التفاهم كتابة ومخاطبة . ومن جميل ما فعلته الصحف الوطنية أن طهرت الأساليب من الألفاظ الفاسدة ، والتراكيب السقيمة ، والكلمات التي ينفر منها الذوق مما دخل به المتصرون على هذه البلاد . أما الأدب والتأليف فالفخر بهما عظيم . وإنك لتعدّ الجُم من الشعراء المطبوعين على سلامة الذوق ونجويد اللفظ والمعنى ، والكتاب المنشئين ممن يتمتع ببيانهم ، ويطربك حريف أقلامهم . وإنك لتستقبل كل يوم مؤلفاً جديداً أقل ما فيه من الخير إن به من مفردات اللغة ما يدل على مستحدث المعاني ومستجد الأشياء . هذه غيرة الأمة على لغتها . وهذا جهادها في سبيل نصرتها .

فهل يضيرها بعد ذلك أن تبقى مخدولة بين جدران الدور الحكومية؟ هل يضيرها أن لا يرسم بها شيء. وأن توضع أسفل من غيرها في كل ورقة أو بطاقة. وأن يجري بها القلم الحكومي سقيماً عتيلاً. لا ينتسب إلى العربية أكثر مما ينتسب إلى الأعجمية؟

إن الذي يرى كتاباً أو منشوراً خارجاً من إحدى دور الحكومة لا يرى فيه حكومة مصر في هذا القرن بل يراها في قرن الاختلاط. فلفتها قبطية لا تنسب إلى عرب ولا إلى عجم. راجت سوق اللغة وأرغمت أنف البغي. ولا سبيل إلى القضاء على قومية أمة إلا أن يقضى على لغتها. قال «ماكس نوردو» الألماني: «إن القضاء على لغة أمة قضاء على قوميتها» أما قومية الأمة المصرية فحال أن يقضى عليها لأن لها لغة أبدية الحياة. فالطمع في ذلك سقطة من سقطات العقل !!!



## ٦

« انا لو رجعتا البصر الى أبعد الأزمان التي  
يحدثنا عنها التاريخ لوجدنا ان قدماء المصريين  
كانوا عاشرين في ظل حكومة كاملة النظام .  
يتنعمون بمزايا حضارة لا تدانيها حضارة  
سواها »  
لجنة التجارة والصناعة

### الرقى الاقتصادي

يحسن بنا قبل الكلام فيما بلغته الامة من الرقى الاقتصادي  
خلال ثلث القرن الأخير ، وقبل النظر في أسباب هذا الرقى  
وما أخذه . أن نقف قليلا على طلل الماضي نتدب فوق قبره مجداً  
فنبت معاهده ، ولم تقن آياته وشواهد  
لنسأل الطلل الدارس : أين الدفائن من أرض مصر نخرجها  
همة تحشد العلم جيشاً ، وتسوق الدهر خادماً ؛ وأين السفائن من  
بحار مصر تفادرها موقرة بالمتاجر مما أنبت التربة الذهبية ، وما  
أبدعت اليد الصانعة ، قروح بفضل الاحسان للناس بما تحمله  
اليهم ، وتغدو بريح المال لأهلها والثناء على بنينا ؛ وأين الحياة  
الصاعدة إلى منزلة النجم إدراكا لغاية الرقى في كل ضرب من

ضروبه ؟ أين الزراعة فياضة الفلات ، والصناعة باهرة الآيات ،  
والعلم شجرة أصلها في مصر ، وظلها في كل مكان ؟  
أين هذا كله ؟ بل أين مصر التي رآها صاحبها وليس في الدنيا  
قطر يدانيها ، ولا في الأرض رقعة تفضلها ، فحسب أن ملكها لا  
ينبغي لغير إله ، ووجد ذلك الآله في نفسه فقال محتجاً : « أليس  
لي ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ » أين مصر التي  
أرادها « يوسف » حين قال لصاحبها : « إجعلني على خزائن  
الأرض اني حفيظٌ عليم » ؟ وأين مصر التي صدق ابن العاص في  
وصفها حين قال : « إنها زمردة خضراء » ؟

طوي الكتاب وجفّ القلم ، وبقيت عيون السماء شاحصة  
تري كيف يتغير الانسان ولا يتغير المكان ، وبقي النيل جارياً  
ينظر كيف تتبدل ألوان الخلائق ولا يتبدل لونه الفضي . ولكنها  
أمة لا تبكي الماضي لتجلس على قبره حتى تهلك ، وإنما تبكيه  
لتذكره فتنتفع ، وتمثل جلاله فتتعظ

كانت مصر منذ أقدم تاريخها كأعظم ما تكون أمة في رقيها  
الاقتصادي . تقول كانت كذلك من قبل لانها هوت في أيامها  
الأخيرة من منزلة رقيها العظيم ، ولكن الأبرار من أبنائها  
تداركوها فجعلوا يقلون عثرتها فلا ينالهم كلال ولا ملل كلما دكوا



عقبة فوجدوا بعدها عقبات . تلك حقيقة لا عناء في الاقتناع بها ،  
فصر تقول إن صناعتها وتجارتها وزراعتها بارت أشد البوار ، وهي  
حين تقول ذلك تأمن كل اعتراض من جانب اليد التي قامت على  
منافس الحياة الاقتصادية . فقد جاءت هذه اليد في الزمن الأخير  
تتعرف بأن مصر الاقتصادية لا تتنفس أنفاس الحياة ، ولا تنبض  
نبض الصحة ، وكان هذا الاعتراف عملا لا قولاً . والعمل لا  
يكذب إذا جاز أن يكذب القول

نسمع الآن كما كنا نسمع قبل الآن ، إن الأمة المصرية  
مغمورة بفضل الإصلاح الذي تم في ثلث القرن الأخير فليها  
أن تعرف هذا الجليل لأهلها . نعم : الأمة المصرية أكرم الأمم  
أخلاقا ، وأكثرها سماحة . فهي تعرف الجليل إذا رأت في موضعه  
أو رأت أنها مقصودة به أو بيعه وإن لم يقع في موضعه . أما  
لسان الحكومة فينطق بأن هذا الجليل لم يكن ولم يحصل ، فن  
الذين أن تكلف الأمة معرفته ، وتنف على إنكاره ، أو يقال إنها  
جحدته

أتدرون ماذا يقول لسان الحكومة ؟ إنكم تسمعون في  
المذكرة التي وضعتها وزارة المعارف المصرية لتطلب إلغاء الشهادة  
الابتدائية من مجلس الوزراء ، وتسمعون في الأمر الحكومي

الذي قضى بتأليف « لجنة التجارة والصناعة » . وفي الأمر الذي قضى بتأليف « لجنة تعميم التعليم الأولي » . وفي الأمر الذي قضى بتأليف « مجلس التجارة الزراعية » . إنكم تسمعون هذا اللسان في هذه الصور الحكومية المسجلة ، فإن وزارة المعارف لم تقتصر إلى الشجاعة الأدبية ساعة سجلت على نفسها في مذكرتها أن التجربة دلت على فساد التعليم الابتدائي وعدم جدواه . ولم تأنف السلطة الفعالة أن يشهد الأمر الخاص بلجنة التجارة والصناعة أن صناعة مصر وتجارها طورتا فأريد نشرها في الزمن الأخير . ولم تخش أن يعجب الناس حين يسمعون أنها تحركت بعد الجلود الطويل لتنتشئ « جامعة أميرية » فلم تكن هذه الجامعة أكثر من ضم المدارس العالية وراء سور واحد . ولم تعبأ بالفرابة التي تفيض بها دعوى إصلاح التعليم بالهيكل المعظمي الذي خلق للتعليم الأولي . ولم تأبه للدهشة التي تملك النفوس حين ترى ألفاظ العناية بالتجارة الزراعية مسبوقة الآن فقط

هذا هو لسان الحكومة في مذكراتها وأوامرها ، وهو فصيح في الاعتراف بأن التعليم والزراعة والتجارة والصناعة لم تكن مرتكسة في هاوية من الإهمال ليس في قرارها إلا الفناء حتى أيقظت الحاجة الوقتية الميؤن المنمضنة فانفتحت بالنظر ، النظر

الذي لا يتجاوز الإشارة والكلام . على أن هذه الأشياء كانت أثناء تأجج الحرب يوم كان السكون أئزم الأشياء للمتحارين ، والآن فأين هي ؟ وما خبرها ، اللهم لا أثر ولا خبر ، ولعل كل شيء حاد إلى أصله ؟؟

### الزراعة

ماذا بلنت زراعة مصر من الرقي ؟ إن الرقي الذي تضاف إلى الحكومة أسبابه وآثاره يقاس بمقياس المدم فهو لا شيء . أستغفر الله ، فإن هناك شيئاً عظيماً رجعت أسبابه وآثاره إلى النظام الذي ابتلع الأموال العظيمة ، هذا الشيء اسمه خيبة الآمال ، وفساد الأعمال ، وله شاهد موجود ناطق ، هو طرق الري التي أثبت الفنيون فسادها يوم كانت نظرية لم يجربها العمل ، والتي أثبتت التجربة القاسية ما قاله الفنيون فيها ، والتي لم تزل باقية إلى الآن .

أما أصل التفكير في الحاجة إلى نظام الري الحديث ، فضله راجع إلى محمد علي ورجال عهده . ولم يزل عمله في تحقيقه ناطق الآثار . بل أشار « السير ولكوكس » بالرجوع إلى الطرق التي وضعها محمد علي للري ، وهي إشارة معناها ان المصالحين في هذه الأيام لم يعرفوا كيف ينظرون بين ذلك المصلح الكبير ، فرضوا

لأنفسهم أن يتفقهروا إلى الوراء قرناً وربع قرن ليتمسوا فضله  
في الإصلاح

لم تزل الحياة الزراعية جامدة كأن لم تمر بها الأعوام الطويلة ،  
فاذا لم يكن الري قد صلح بما فعله به فان الأرض لم تر بذراً جديداً  
غير ما تعرف من البذور ، وهذه البذور القديمة لم تجد عناية لتجويد  
نوعها ، بل وجدت تقيض ذلك إهمالاً أصاب بعضها بالرداءة  
وبعضها الآخر بالانحطاط بجانب مثله من بذور الأمم الأخرى .  
وهل تفتقر هذه الحقيقة إلى برهان بعد أن رأينا مصيبة القطن  
بانحطاط درجته ، وبعد أن شاهدنا غفلة الحكومة عنه ، فلا هي  
رفعت من هذا الانحطاط بتوليد الأنواع الجديدة . ولا هي دعت  
الزراع إلى ذلك وحببت اليهم العمل بحسن الجزاء . انما كانت  
دلائل العناية أن انصرفوا بكل قوتهم إلى السودان يستنبطونه  
قطناً يرتفع على القطن المصري ويحتجزون له النيل ليرى نبات  
مصر وفلاحها أمراً جلالاً لم يريانه من قبل

إن الأثر الملموس هو أن محصول القطن زاد في جلته لأن  
الفلاح زاد الأرض التي يزرعها قطناً ونقص في مقداره الجزئي .  
فقد أصبح متوسط محصول الفدان الواحد ثلاثة قناطير وكان قبل  
سنة ١٩٠٠ نحو ستة قناطير . وما كان لهذا النقص من علة إلا أن

الارض ضعفت بكثرة تداولها في زراعة القطن لكثرة ما تطلبه المصانع الانكليزية وغيرها منه . وان نظام الري ملاً بطن الارض ماء ولم يتم بجانبه نظام الصرف ففسدت تربتها . أما محصول القطن فاليك ما قالته لجنة التجارة والصناعة فيه : « إن محصول القطن المصري لم يزل على ما كان عليه منذ قرن خلافاً للبلدان الكبرى الزراعية فان محصولاتها تضاعفت وذلك بفضل الأساليب الزراعية الحديثة » . هذا هو الأثر الملموس ، وهو الجميل الذي أسدي لمصر فاعظمه .. وما أثقله على رقبتها ..! وما أوجب عليها أن تعرفه فلا تنكره أبد الدهر ..! فاذا هي جحدته بعد ذلك كان أمرها عجيباً ..! أليس كذلك ؟؟

إن للإصلاح مواقيت لا تنقطع عن أمة ما دامت حاجتها في الحياة متجددة ، والإصلاح ليس كلاماً يقال ويذاع ، ولكنه عمل ، فلماذا لم نره في مواقيته ...؟



## ٧

» ان مصر غدت مهد حضارة هي من  
أغنى الحضارات القديمة وأعجدها . كما  
أنه بسبب التقصير في الارتفاع بالمزايا  
الطبيعية قدر لهذه البلاد أن لا تبلغ  
درجة الرقي والرخاء التي كانت جديرة  
بها « لجنة التجارة والصناعة

### الصناعة

ما كانت البلاد المصرية في أي عهد من عهود الحضارة في  
منزلة تهبط عن الدرجة الأولى بين غيرها من البلاد جميعاً . اللهم  
إلا هذا العهد فقد هبطت حتى أصبحت سفلأ . وتأخرت حتى  
صارت ذيلأ

ومصر مخلوقة لتسكنها أمة تمشي أمام الأمم وفي يدها لواء  
الحضارة . فان بها من الخصائص الطبيعية والمزايا الكونية ما  
ليس بغيرها . وإذا كانت للحضارة مقومات من ظواهر الطبيعة  
في الأرض والهواء والماء والجو والانسان ، فهذه المقومات وفيرة  
على أكلها في مصر ، حتى كأنها اختصت بها دون سواها . ولكن  
العهد الذي احتواه ثلث القرن الأخير جعل مصر في ذيل الناس

لأنه أهمل كل هبة أنعمت بها الطبيعة على مصر . فكان من الضروري أن تكون نتيجة الإهمال غروب شمس الحضارة المصرية واقتحامها سبيل الحياة في لجة من الظلام الدامس . على أن الأمة لم تعجز عن أن توري همتها فتقدح شرراً تستضي به

أدخل أية مدينة مصرية ، وانظر هل تقف عينك منها على شيء أبعد من آثار الصناعة القديمة . إفتح أي كتاب في تاريخ مصر القديم والحديث ، وانظر هل تقرأ إلا شهادات تنطق بأن الصناعة المصرية كانت في العهد القديم أيام الفراعنة . وفي العهد المتوسط أيام الفاطميين وغيرهم من الولاة والامراء المسلمين . وفي العهد الذي بدأت فيه النهضة الحديثة أيام محمد علي وخلفائه من بعده . في منزلة من الرقي والابداع والجودة ودقة الذوق لم تبلغها منزلة الصناعة في أمة أخرى حتى في هذه الأيام ؟ فإذا رأيت ما تبصر عينك وقرأت ما يشهد به التاريخ فسل : لماذا وقفت صناعة مصر منذ ابتداء العهد الأخير موقف الجود ، ثم تحدت على درج الانحطاط والفناء حتى عفا أثرها ، واتقطع خبرها ..؟

وحيثما كانت الأمة ناهضة لتقف بين صفوف الأمم في الموقف الذي تقتضيه الحياة الكريمة وجب أن تحمل نصيباً عظيماً من العمل لهذا الموقف . كذلك كانت الأمة المصرية في كل أيامها .

ولم تنس هذه الأمة أن الصناعة هي الدرجة الأولى في السلم التي تصعد فيها الأمم لموقفها الرفيع . فكل حاجة من حاجات الحياة إنما تقوم على عمادٍ قوي من الصناعة . ولا تدرك الأمة حاجاتها كاملة إلا حين تعتمد على صناعتها أو يكون أعظم اعتمادها عليها . فلو أن أمة عاشت طالة على غيرها في كل مصنوع ل بقيت مشلولة اليد ناقصة الحاجات

هذه الحقيقة التي لم تنسها الأمة هي التي ألقت اليها بمقاليـد الصناعة في أيامها الأولى فبلغت منها ما لم تبلغه أمة أخرى . وهي التي ألقت اليها بمقاليـد الصناعة حينما أسفر فجر هذا العصر فرفعت قواعد المصانع الواسعة . والآن كيف لا نسيل الدمع إذا وقفنا باطلال مصانعنا ؟ بل كيف لا نسأل : لماذا هدمت مصانع النسيج والزجاج والمعادن « ١ » والحديد والآنية والورق ؟ وأين مصانع السفن والذخائر وملابس الجيش وسلاحه وعدده وخيامه ؟ هل ادخرنا ما ينبغي حاجة الرقي إلى أن يفرغ عمر الدهر فهدمت تلك المصانع ؟ هل بلغنا نهاية القوة والبأس فخطمت الترسانات ؟ أم ماذا كان ، ولأني شيء قوضت دور الصناعات .. ؟

---

« ١ » كانت صناعة المعادن لعهد محمد على تدرس دراسة علمية في ( مدرسة المعادن ) التي أنشأها بمصر القديمة



تقيم الحجة على اليد التي أخذت السبيل على منافس الحياة الصناعية مما قوله الألسنة الرسمية نفسها . هذا هو التقرير الذى وضعته لجنة التجارة والصناعة الرسمية يقول : إن صناعة مصر لم تمت عن فقر ولا عوز . ولم تهلك عن غباوة فى الصانع المصرى . فالمواد الأولى موفورة لا تعوز مصر إلى غيرها . والصانع المصرى ذكى صبور مبدع . هكذا تقول لجنة التجارة والصناعة فى كل سطر من تقريرها . إذن : لماذا ماتت صناعتنا ؟ إن تقرير هذه اللجنة ينطق بالجواب أيضاً . فهو يقول : « فى سنة ١٨٣٦ بلغت قيمة المنسوجات المصدرة للخارج ٦٢٠٠٠ جنيه مصرى أى بنسبة ٣ فى المئة من مجموع الصادرات . وفى سنة ١٩١٣ هبطت قيمتها إلى ١١ ألف جنيه أى بنسبة تكاد تكون فى حكم العدم ... ونلاحظ أخيراً أن المحصولات الصناعية الأخرى كانت قيمتها فى صادرات سنة ١٨٣٦ — ٥١٠٠٠ جنيه مصرى أى بنسبة ٢ ونصف فى المئة من المجموع . أما فى سنة ١٩١٣ فلا تتجاوز نسبتها ٩ ر. المئة ، ويقول بعد ذلك : « حلت انكساراً فى المنزلة الأولى التى كانت لتركيا فى سنة ١٨٣٦ سواء فى تجارة الواردات أو فى تجارة الصادرات وقد أصبحت أهم بلد تورد لنا بضائعها وتستورد بضائعنا » . نعم : لعنا نجد فى هذا القول الرسمي جواب السؤال

ولست الآثار السيئة التي أدى إليها موت الصناعة المصرية خاصة باقاة الأمة مقام الافتقار الدائم إلى الغير . وظهور نصيبها من الرقي في مظهر يمكن أن يقال معه أنها عاجزة عن أن تعول نفسها وترك لذاتها . بل آثاره السيئة أصابت الأمة أيضاً بالفقر الأدبي إلى جوار الفقر المادى . فان هذه الأمة القوية تسكن وطناً توفرت فيه أسباب النماء الانسانى ، فن النتائج الطبيعية أن تتناسل ويكثر أبناؤها . كذلك تقول الاحصاءات . وبمقدار تهدم الدور الصناعية يضيع أطفال وشباب ورجال هيأتهم الفطرة للصناعة ، وزادوا عن حاجة الزراعة وغيرها من الأعمال . وقد وقعت هذه النتيجة الخطرة ، فأدت إلى العواقب التي لا بد أن تؤدي إليها كخلال الأمن العام وكثرة العاطلين وشيوع التسول والتعويل على مرتزقات حقيرة تتخذ عند الراقين دليلاً على ضعة الأمم والبلاد . ولم يكن أبناء الأمة ليركبوا هذا المركب على جهل به ، بل كانوا يركبونه اضطراراً على علم أنهم أكرم من أن يركبوه مختارين

كانت الأمة ترى شبح هذه الحالة فيملاً عينها ظلاماً . وكانت لا تجهل ما وراءه من عاقبة تنصب بالويل على أعز شيء في مستقبلها . ولكنها لم تكن مستسلمة ولا نائمة . إن الأمة

رفعت أعلام يقظتها فصاحت الصحافة الوطنية تشهد العالم على ما يحدث وعلى أنها عارفة بما يحدث ، وصاح القادة في الأندية الرسمية وغير الرسمية يشهدون العالم أيضاً هذه الشهادة ، وبيننا كانت تقيم برهان يقظتها على هذا النحو كانت تستجمع قوة العمل وهي مكتوفة ولكن الآثار التي أخرجتها حركة الشعب المكتوف نزلت بين آثار الشعوب الأخرى منزلة عالية

صاح المصريون : لتحي صناعة مدرر . وليحي مجدها الصناعي . وليعد عهد الحضارة العظيمة . ولم يلبث هذا الصباح أن هبط على قلب الصانع المصري في حانوته الحقيقير . فاذا فعل : أخرج البدائع مما شبت العين بجماله وهو معروض أمام الأبصار في المعارض الصناعية . ولو نطقت ألسنة الانصاف لسمع الناس أن أعظم ما يفتخر به ممدنو الشعوب من نخامة القصور التي شيدت في المدن المصرية لهذا العهد ليس إلا عمل الصنائع والعمال المصريين الذين يحشدون لبناء تلك القصور والمآثر كما حشدوا من قبل لبناء الأهرام

وقد يلذ للانصاف أن يسمع الناس أيضاً صوت الحق فيما رأوه من ظواهر العناية الرسمية بالصناعة المصرية في السنوات الأخيرة . ولا أسهل على الحق من أن يقول : إن الأثر يدل على

المؤثر . وهذا هو المؤثر فأين الأثر . هذه هي إدارة التعليم الفني والصناعي . فأين هذا التعليم على وجهه الصحيح ؟ وأين ما أجرى الله على يد هذه الإدارة من الآثار الفنية والصناعية والتجارية ؟ هنالك آثار جليلة لها . فإذا سألت عنها فسل قبل ذلك : لماذا اقترن وجود إدارة التعليم الفني بهضة الأمة الصناعية ؟ ولماذا نرى كل الحرص على أن تمتد يدها إلى كل مكان تستقل فيه الأمة بأحياء الصناعة ، من مدرسة أو مصنع أو غيرها .. ؟

ولكن الأمة ناهضة لا عمالة . والأمة الناهضة بعزم غير مفلول لا تنلب على ما تريد . فإذا غلبت كان ذلك إحدى قلتات الطبيعة !!!





« ان المكانة الاقتصادية لتجارة الصادرات المصرية قد ضعفت واضمحلت لأن تنوع المواد التي تتكون منها الصادرات أخذ في النقص بدل الزيادة . وهذا يجعل اعتماد القطر على البلاد الأجنبية أشد وأعظم منه في أي زمن سابق » لجنة التجارة والصناعة

### التجارة

يحمل الزمن أعلام التجارة المصرية ، ولكل عصر من عصوره التي مرت بمصر علم خافق  
إن التاريخ مرآة الماضي . والناس ينظرون في هذه المرآة صورة تنبئ باليد التي طلقت بها تجارة مصر أعناق الشعوب .  
ولكن هذا التاريخ سيقف مرعوش اليد حين يكتب صفحة التجارة المصرية في ثلث القرن الأخير ، لا يدري أيصل حاضرها بماضيها وهو لا يتصل . أم يمزله عنه قيسين كتابه الأبيض بصفحة سوداء ؟

تستمد تجارة الأمة قوتها وسعة انتشارها من نماء المنتجات . لا فرق في ذلك بين ما تنتجه الأرض ، وما تنتجه الصناعة .

وإن شواهد الحاضر الذي تنافس فيه الأمم العاملة والحكومات  
المخلصة لتدل على أن أية أمة لم تكن تبني مجد تجارتها إلا بهذه  
الشواهد

يجتهد كل شعب ، أو نجتهد الحكومات المخلصة لشعوبها  
لتحرز السبق في عدة أشياء لا بد منها لاحتراز النصر في معركة  
الأسواق . فالبلاد التي تخرج أجود الحاصلات من أرضها وصناعاتها  
والتي تعرف كيف ترى الأذواق وإلى أين تنجه ، والتي تجمع بين  
الاتقان والجمال ومطابقة الأذواق مع إدراك الحيلة لجعل النفقة  
أقل ما تكون بالقياس إلى غيرها . البلاد التي تفعل ذلك هي بلاد  
الأمة التي تنزل تجارتها من الأسواق أرفع منزلة ، وتنال من  
الربح أوفر نصيب ، وتبلغ من شيوع الذكر وسعة الانتشار ما  
يسير كالطير في جوه . كل شعب عامل عرف ذلك قديماً وحديثاً  
وسعى ليستأثر به دون سواء . وقد كان الشعب المصري  
كذلك أيام كان قدوة الشعوب في الثروة والحضارة والقوة والمجد .  
فهل له اليوم هذه المنزلة ؟ كلا : فقد ضاعت وصار إلى منزلة البوار  
فأصبح عالة . تجارته من يد النير وييد الغير . وحاجاته التجارية من  
عند الغير . حتى لو أن هذا الغير أبى عليه مادة التجارة ، لما رأيت  
في مصر تاجراً وطنياً ...

كلما كانت صناعة الأمة راقية ، متمشية مع روح العصر ،  
قائمة على أساس صحيح من الوسائل العملية . وكما كانت زراعة  
الأمة نامية ، جيدة الثمرة ، كثيرة الأنواع . كانت تجارتها عظيمة  
رائجة . وقد رأينا كيف أصيبت الزراعة والصناعة في مصر .  
فليس عندنا من غلات الأرض ما ندخل به أسواق العالم إلا  
القطن . وهو مع ذلك محمول على قيود ، بعضها يجذبه من منزلته  
العالية إلى أسفل ، وبعضها يختص غير المصريين بربحه العظيم ولا  
يترك لهم إلا بقايا قد لا يقنع بها المنتج غير التاجر

قالت لجنة التجارة والصناعة : « إن مكائنا الاقتصادية  
ترتكز على محصول زراعي واحد وهو القطن . وفضلا عن ذلك  
فهذا المحصول معرض من حيث قيمته وكيته لتقلبات أشد وأعظم  
مما يصيب سائر المحصولات المعادلة له في الأهمية »

وإذا سألت عن غير القطن فقل : أين غلات الأرض المصرية  
وهي التي تنبت كل شيء ، وينضر فيها كل نبات ؟ أين أزواج  
الفاكهة من كل صنف وخزائن الغلات من كل نوع ؟ أين البقول  
والألياف ؟ وأين خشب الغابات ؟ أين ما يتبع نماء الزراعة وسعة  
الأرض من تربية الماشية والطيور ؟ وأين أوبارها وأصوافها  
وألبانها وزبدتها وسمنها وعسلها ؟ كل ذلك شيء ، لا أثر له في تجارة

مصر . وقد كان من خصائصها . وكانت تفيض به على العالم أجمع  
إذا لم تكن صناعة ولا زراعة ، ولا عمل للارتفاع بمزايا  
الأرض والحيوان ، فأى شيء تستمد التجارة منه قوتها وتمتد  
عليه في انتشارها ؟

ليس هذا وحده هو الذي نسخ ظل التجارة المصرية من  
أسواق العالم بعد أن كانت ملتها . فإن هناك شيئاً آخر ، هو عدم  
العناية بمعادن مصر ودفائها من جامد وسائل . وقد كانوا يقولون  
سترأ على وصمة الإهمال إن القطر المصري ليس من الأقطار التي  
استودعتها الطبيعة كنوزها المدفونة . غير أن التاريخ كان يصبح  
من جانب الصدق بأنه قول زور . واليوم أقامت « لجنة التجارة  
والصناعة » البرهان الرسمي على كذب هذا القول الذي كان شبه  
رسمي . قالت اللجنة : « كان المصريون يمارسون صناعة التعدين  
وسبك المعادن بدليل وجود الكثير من الآلات الزراعية المصنوعة  
من النحاس والتماثيل المصبوبة من البرونز والحديد » . على أن ما  
حدث أخيراً شهد بأن أصحاب تلك الدعوى كانوا يدعونها لغاية  
في نفوسهم أبرزتها صورة الشركات « ١ » ، التي ألفت لاستخراج  
زيت البترول من آبار « هرجادة » و « جسة » ولم يكن فيها أثر



ليد مصرية . حتى ولا يد الحكومة !!!

ومن البديهي أن عناية الحكومات بمواصلاتها البرية والبحرية ،  
على قدر عنايتها بتجارها الوطنية . ويمكن أن يقال إنك إنما وجدت  
سفينة تجارية تمخر عباب البحر ، علمت أن العلم الذي يحقق عليها  
علم حكومة تحارب حرباً تجارية وطنية . ويقال نتيجة لهذا : إنك  
حيثما وجدت البحار خالية من سفينة تنسب إلى حكومة موجودة  
في الأرض علمت أن هذه الحكومة دفنت تجارة وطنها فلم تعبأ  
بما ينقلها من بلدٍ إلى بلد . وبعد ذلك هل يتفضل الزمن الذي  
ينطق بلسان العمل في ثلث القرن الأخير فيدل الناس على سفينة  
تجارية للحكومة المصرية وببارة أخرى للشعب المصري ؟ إن  
لأشد الأمم ضعفاً واقتناراً سفناً تجارية وتجارة منتشرة . أما مصر  
فليس لها شيء من ذلك ، لا لأنها عاشت على هذا الفقر قبل ثلث  
القرن الأخير ، بل لانه جاء فنزع سفنها التجارية من يدها . ولم  
تزل هذه السفن موجودة تشق البحار . فسلوها ما سبب جفائها ؟  
سلوا شركة البواخر الخديوية : كيف انتقلت سفننا التجارية إلى  
يدها . ثم سلوا الأيام تخبركم : لماذا انتقلت ؟

كانت مصر ذات تجارة واسعة نامية تعتمد على زراعة وصناعة  
واسعتين ناميتين . وكان لها أسطول تجاري يشارف الناس في

أوطانهم بمجد التجارة المصرية . وكانت قوتها التجارية تنبعث عن نشاطها لنفسها وهي طليقة . واليوم فلا تجارة إلا ما يجود به من كانت مصر تجود عليهم . لأن الزراعة جامدة على حال لم تتغير مع الزمن . والصناعة مشدودة الوثاق بحبال وسلاسل . وهذه هممة الشعب تقطع سلاسلها وحبالها . والشعب يستمد القوة على ذلك من قلبه ، من إخلاصه ، من ثقته بنفسه ، من الحق الذي لا يخذل . فاذا خذلت الأيام كان شأنها عجيباً !!!





« ان مهمة المجلس هي المحافظة على الصحة العامة في مصر . ومع هذا يجب السهر على المصلحة التجارية . فلا يجوز تغيير اللوائح المحلية الا اذا روعيت فيها هذه المصلحة »  
مستر مياقيل

### الاجتماع والصحة

أرأيت إذا جلست إلى شيخ فإن برك الدهر على صدره ،  
فاستوصفته حياة مصر الاجتماعية والصحية قبل ثلث القرن  
الأخير ، فإذا اسمعك ؟

لا شك بفتح عينيه البراقتين يبطه ليراك ، كأنه يسمع منك  
بعينه البصيرة لا بأذنه السمعية ، ذلك فعل الذكرى التي ثارت في  
قلبه ، والخبرة التي تملأ صدره كلما رأى حاضره وذكر ماضيه .  
ومثل هذا الشيخ يتبرم بالحياة لأنها أمهله حتى رأى جيل الفساد  
والسقم

شيخك المستول يزفر ويتمل تحت سؤالك ، كأنه يحاول أن  
يزيح عن قلبه حجراً ثقيلاً . ولكنه على كل حال سيتكلم ، فاسمع  
ما يقول :

منذ أربعين عاماً كانت مصر موطناً لشعب بري، طاهر،  
لا يعلق بذيله دنس، ولا يتقذر شرفه برذيلة. أعراسه موفورة  
عليها رقيب من الأرواح، ودينه مصون عليه حفيظ من المهج.  
كان أكثر ما تبلغه الرذيلة منه أن ترسل خيالها فيقطع عنق هذا  
الخيال، وكان أكبر ما يدخل عليه المكر أن يبعث نذيره فيقضي  
على هذا النذير

هكذا كانت مصر وشعبها منذ أربعين عاماً، أيام كانت  
قوتها المعنوية كالحديد صلابه وتماسكاً، وثروتها في يدها كالوديعة  
في يد الأمين لا تمتد يده اليها بسوء. وأخلاقها صافية كالماء لا  
عكر فيها، متآخدة كالعقد المنظوم لا انقراط لها

مضت تلك الأيام وطوت شبابها وشيبها، وقد كانوا من  
قوة الأبدان بحيث يعدل واحد ألفاً، ومن حياة الوجدان بحيث  
لا تموت أعراسهم حتفاً، ومن طهارة النفس بحيث لا يلغون  
بفاحشة، ولا تنزل الدنية بواديهـم

هذه صفة مصر وشعبها في الوقت الذي كان قبل أربعين عاماً،  
فهل مسخت هذه الصفة أو لا تزال قائمة؟ وهل تبدلت الحال أو  
بقيت على نحو ما كانت؟

إهبط المدائن من أرض مصر، واقتعد الفضيلة فيها. فانك

سوف نحمدها بعد الوصب والاعياء متنبذة مكان الذليل العاني تحت حجر من أحجار المعابد ، أو في زاوية من زوايا القبور . لأنها حوربت في السبل والأندية والمدارس والمجالس ، فانهزمت تطلب النجاة في الدور المأهولة ، ولم يفرخ روعها حتى هوجت في الدور أيضاً . فطارت عنها تطلب النجاة في المعابد ، في بيوت الله . ويأويلتنا : فقد أحيط بها خفية في هذه البيوت أيضاً . إنها لا بد أن تذهب إلى المقابر لتجيرها العظام النخرة . والأجساد البالية . وكذلك فعات . وكذلك أحسن الموتى جوار الفضيلة الفضيلة في نفسها غير مذنبه . والفضيلة لا تحارب لذاتها . فلماذا شنت عليها تلك الغارات ؟ سؤال يسأله العقل وقره الانصاف . ولكن الفضيلة تشد الأزر ، وتجمع الشتات ، وتصلح الأبدان ، وتمصم الأرواح ، وتصون الأخلاق والآداب ، وتحفظ الثروة والجاه ، وتجري بحار العلم ، وتفرى بالحمد ، وتحت على الرفعة ، وتأمّر بالعمل للحياة الكريمة . هذا كله فعل الفضيلة فكيف تفعل فعلها الطبيعي في مصر ؟ إنها إذن تستحق أن تنفى من الأرض !!

مرض الاجتماع المصري بتأ أصاب الأخلاق . فلم تبد التريية تعالجه ، ولا أزع الدين يداويه . ولا يعرف الناس حكومة أهلية

ترى مرض الاجتماع في وطنها فتنام عنه أو تبيحه . اللهم إلا أن تكون تلك الحكومة مكتوفة أو مسوقة إلى ما يجب أن لا يكون ولم تكن مصيبة الاجتماع المصرى بهذا المرض فقط ، بل كانت بما سلط على أبناء الأمة من التشريد والفراغ . والذي يدخل المدائن لا يرى خذلان الفضيلة وحدها بل يرى أيضاً خذلان الانسانية بين جيوش المتشردين العاطلين

عاشت الأمة خلال هذا الزمن بين مشادة ومدافعة . تنادي إن البلاء دام والشر متفقم . وتطلب من الحكومة أن تؤدي الواجب فلا تسمع ، وكان شأن الأمة بين حالين : شكاية وتحذير ، ومعرفة للواجب وشروع في أدائه . أما التحذير فلم يكن يسمع . وأما العمل فكانت الأمة تنهض به في طريق ارتفعت فيها العقبات . على أنها لم تكن ترجع عن مقصدها وإن لم تل منه إلا قليلا .

بقيت الصحة ، وما أيسر أن تمتد العين إلى مساكن هذا الوطن في قراء ومدائه لترى كيف تتخذ منها اللعل والأمراض مكان سكاها . إن القاهرة عاصمة الشرق أجمع لم تلجأ جديداً من الإصلاح الصحي ، فشوارعها الكبيرة الواسعة هي الشوارع التي اختطها اسمايل . وأسلافه من قبله . وقد كانت الأشجار زينة على

جوانبها فاجتثت أخيراً ، والاسكندرية على مثالها إلا ما اقتضت  
الشهوات الخاصة أن يبالغ في إصلاحه من شوارعها حيث يسكن  
المتصرفون في أمور البلاد . وليست المدن الأخرى بأحسن حفظاً  
من العاصمتين وهي لا تكون كذلك طبعاً . وبعد أن تكون هذه  
حال الصحة في الحواضر تبقى حالها في بلدان الريف وقراء وصمة  
في جبين القرن العشرين ، ألصقتها به من لا يعنون بأرواح العباد  
هنالك في المدائن أحياء اسمها الأحياء الوطنية ، يسكنها  
الشعب العامل المجتهد الصبور ، أزقة وحارات لا تكاد تنفذ إليها  
خيوط الشمس حتى تبرد حرارتها برطوبة وخفة . ولا تكاد تمر بها  
نسائم الهواء حتى تفسد بنتن ريحها الخائقة ، في تلك الحارات  
والأزقة ترى الموت جاثماً يتنمر ، وتبصر الحياة خائفة تترقب .  
ومنها ترتفع أصوات النوائح كلما جاء صيف أو دخل شتاء فجاء  
الموت وصال . وعلى أرضها تقام المآتم الدائمة لأبناء مصر الذين  
تخطفهم يد الفناء ، أستغفر الله . بل يد الإهمال الذي تركهم في  
مساكن ألح عليها الخراب لطول العهد بها ، وأنكرها العصر لأنها  
أولى أن تكون مساكن أثرية

هذه صحة الشعب الذي يسكن المدن ، أما شعب الريف فلولا  
أنه يخرج إلى فضاء الأرض فيجد الحياة في شمس المشرقة وهوائه

النقى ، لما كان غير الدور قبوراً له . أفلم تنظروا مساكن الريفيين في قراهم ؟ الرجل والمرأة والطفل على مضجع واحد بجانب مضطجع البقرة والأتان . وما كان ابن الريف ليرضى ذلك لنفسه وأهله ، لولا أنه مضطر ، وهو ليس يجهل كيف يجب اتقاؤه للصحة ، ولكنه لا يملك وسيلة الاتقاء . يعرف أن اليد المسيطرة مكلفة أن تصون صحته وحياته ولكنه يقنع بالسكوت خشية التجبيه والرفض ويعمل نفسه بأن تفعل اليوم أو غداً

لولا أن طبيعة هذا العصر أفضت إلى النفوس بالضرورات الواجبة لما أبت الأوباء على حي في مصر من أبنائها . علمت الأمة إن كل شيء في الوجود للحياة ، وإن الحياة بالصحة والعافية ، فجعل الناس في الريف والحضر لا يشكون ألماً إلا فزعوا إلى الأطباء . وما كانت « مصالحة الصحة » ولا ميزانية الحكومة لتنفعهم لو أنهم قعدوا ينتظرون أن تعالج الحكومة أسقامهم ، هكذا يشهد الواقع . ويرجع الواقع في شهادته إلى أول العهد بالحياة الأخيرة . فقد شاع الوباء الأصفر « الكوليرا » في هذه البلاد سنة ١٨٨٣ حتى خافت الدول أن ينتقل إلى أوروبا فألفت في الاسكندرية مجلساً صحياً دولياً يتخذ الوسائل للنجاة من خطبه الدائم . وكان المستر « ميافيل » مندوب انكلترا في هذا المجلس .



فانظر ما قال يومئذ : « إن مهمة المجلس هي المحافظة على الصحة العامة في مصر ومع هذا يجب السهر على المصلحة التجارية فلا يجوز تغيير اللوائح المحلية إلا إذا روعيت فيها هذه المصلحة » . كآة قالها المستر « ميافيل » منذ ست وثلاثين سنة . فكانت وحيًا لم يتبدل وكانت قانونًا جرى عليه العمل إلى الآن . فاذا ما تدل عليه هذه الكلمة حين تتعارض في مصر صحة الأمة ومصلحة التجارة ؟؟ أليس ذلك عجيبًا في أفعال الناس ؟؟



# ١٠

« وقد اقترح بعضهم حديثاً أن يتعلم المرشحون  
أموراً تفيدهم في مناصبهم الرسمية في مصر  
والسودان وشرع في اخراج هذا الاقتراح  
من القول الى الفعل على سبيل التجربة »  
اللورد كرومر سنة ١٩٠٥

## الادارة

أمام الادارة المصرية دائماً شبح هائله مخيف ، هو شبح الأمن  
العام . ولكن الادارة المصرية لم توفق يوماً واحداً لتأمين نفسها  
صولة هذا الشبح . فأنواع العلاج التي التمسها له ، لم تكن تزيد  
إلا خلاً واعتلالاً . واللجج الذواخر التي رفعتها من صنوف  
العمل والتدبير كانت ولم تزل تنكسر على صخرته الصماء . ضاع المال  
الذي لا يحصى في سبيل الأمن العام . ونفدت الحيلة التي أظهرها  
أصحاب السيطرة في القرن الأخير ، وهي تجربة قاسية ، تنطق بأن  
اليدين التي تحركت لتصلح كانت قادرة على إضاعة المال والوقت فقط  
من الممكن أن يخرجوا اللوائح والمنشورات التي وضعت  
خلال ثلث قرن لمعالجة الأمن العام من خلله فينبوا بها جبالاً من  
الورق . ومن الممكن أن يعودوا إلى الوسائل التي التمسوها لمعالجة

الأمن العام من سقمه ليروا كيف لا تتعارف إلا كما يتعارف الماء والنار . ولقد كان النفي الإداري آخر وسيلة استعيرت من سياسة القرون المظلمة ليصلح بها الأمن العام في القرن العشرين ولكنها لم تفلح أيضاً . فهل هذه الخيبة كلها لأن مصر واد من أودية الشياطين فلا يستطيع البشر رياضة أهله على الخير ؟ أو لأن الداء الدفين في صدور غير صدور أهل البلاد ؟

. الإدارة المصرية فروع ترجع إلى أصل معين . أو هي كأعضاء الجسد تستمد الهداية من الرأس . ولا ريب أن الحياة التي تدب في أصل الشجرة تنمى في عروقها جميعاً . وإذا صلح الرأس صلح الجسد كله . وإن الاغصان الجافة الميتة لتدل على جفاف أصلها وموته . وفساد الأعضاء ناطق بفساد الرأس . كانت فروع الإدارة المصرية في أيدي المصريين . ولكن أصلها لم يكن في أيديهم . فكيف اعتلت ؟

وماذا كان يجز الإدارة عن تقويم الاعوجاج الدائم الذي أصيبت به قناة الأمن العام ؟ لو أن إنساناً نشر بين يديه تاريخ الإدارة في ثلث القرن الأخير لرأى أداة المعجز . فهناك أوامر مقرونة بأن تطاع طاعة وحي السماء . تصدر عن آمر يرى أنه معصوم في مثل هذا البلد . فلا يقبل إرشاداً ، ولا يسمع تعليماً .

حتى إذا شرعت فروع الإدارة في تنفيذها عاقتها نفوس الناس ، لأنها مقطوعة النسب بإاداتهم وأخلاقهم ومشاربهم وقوميتهم . وإذ ذلك تضطرب تلك القناة التي يراد تقويمها في أيدي الموظفين المصريين . وما أسهل أن يقال إن هؤلاء الموظفين عجرة قليلو الخبرة ، تموزم الوصاية ، ويفتقرون إلى الارشاد الطويل . ثم تلو هذه الشهادة المقلوبة أن يخلو ذلك الأمر بنفسه قليلا وما هي إلا أن يخرج بأمر جديد ينسخ الأمر القديم . وهكذا تتكرر هذه التجارب بل لا تزال تتكرر الى الآن . أما بثما فعلى الموظفين المصريين . وأما خيرا المزعوم فلغيرهم . وإذا ذكرت بعد ذلك قيل إنها تجارب صحيحة ولكن البلاد لم تنهأ لها بعد !!!

قال اللورد كرومر في تقريره سنة ١٩٠٥ وهو يصف طريقة انتخاب الموظفين الانكليز للمناصب المصرية : « يجب أن يكون عمر الطالب عند تقديم طلبه بين ٢١ و ٢٥ سنة » . وأكثر هؤلاء إنما كانوا يتولون مناصب الإدارة . وأكثرهم لم يكن يخطؤه الحظ فيقبض بيده على منصب من مناصب التفيتش . هؤلاء الشبان هم الذين قال عنهم اللورد كرومر أيضا إن بجانب كل مدير في الأقاليم مفتشا انكازيا يساعده . وهم الذين قال عنهم إن طلبهم وظائف الحكومة المصرية عظيم حتى بلغوا سنة ١٩٠٥ — ٢٢٠

طالباً بينما كانت الوظائف الخالية ١٤ وظيفه . ولا تدل شهادة الواقع على أن مديري الأقاليم أهل الخبرة والتجربة . وأبناء البلاد العارفين بأخلاقها وعاداتها وما يصلح لها وما لا يصلح . لا تدل شهادة الواقع على أن مديري الأقاليم الممتازين بهذه الصفات كانوا يرمون أو ينقضون أمام الارادة التي يكتنفها نزع الشباب في ابن الحادية والعشرين أو الخامسة والعشرين . فلو أن الإدارة المصرية صلحت بعد ذلك لكان صلاحها رمية من غير رام . أو كان إحدى خوارق العادات !!

كانت هذه علة الإدارة . ولا تؤدي هذه العلة إلى غير تيجتها الطبيعية وهي خلل كل شيء يرجع إليها ولا سيما الأمن العام . فاذا أضيف إلى العلة الإدارية علة حرمان الأمة من التعليم والتدريب كملت أسباب الخلل وكان أمراً واجب الوقوع

إن وازع العلم أبلغ تأثيراً في النفس من وازع القوة . وقد كان يجب أن يكون أول يوم فتح به ثلث القرن الأخير أول يوم يفتح به الإصلاح الجديد خالياً من كل عيب . خالصاً من شائبة النية المنحرفة عن الاستقامة . قالوا يومئذ إن الإدارة مريضة تحتاج إلى العلاج . وكان يجب أن يقولوا إن بناء العلم الذي وضع أساسه محمد علي ورفع قواعده خلفاؤه من بعده يحتاج إلى إكمال .

ولكن الذي حصل غير ذلك . الذي حصل أن دكّ بناء العلم .  
وعولجت الادارة بمقايير تضاعف الداء . ووجدت مضاعفات لم  
تكن موجودة من قبل . وهي انسياب سيل المدنية الفاسدة على  
البلاد ، وتفتق الشهوات الشيطانية بما فعله الطمع في ركوب متن  
هذه المدنية . أمسى الناس وأصبحوا ، فإذا هم في ظلمة حالكة .  
مصباح العلم ينطفئ قليلا قليلا . وفساد الادارة يتجلى بأشكال  
وألوان من المغارم وشيطان المدنية الفاسدة يفوى الناس أن يلتقوا  
بأنفسهم في مهاوى الهلاك . وسوء العمل لحفظ الثروة الفردية  
يقتلهم من جذورها . أعجيب بعد هذا أن تكثر الجرائم . وتشيع  
المظالم . ويطنى الفساد . ويقتل الناس بعضهم بعضاً . كلا : ليس  
هذا عجيباً ، ولكن العجيب أن يكون خلافه

وقد توفرت الأمثلة من غرائب المهد المعروف ، وربما كان  
أغربها أن يصدر الأمر القاطع فيتلقاه موظفو الادارة المصريون  
بالطاعة والتنفيذ . فإذا نشأت عنه أمور يوجب القانون أن يكون  
لها قصاص ، سيق الموظف المصري الذي سمع وأطاع ونفذ إلى  
موقف القصاص . فلا يجد ما يدافع به عن نفسه إلا أن يقول في  
نجواه : « غيري جنى وأنا المعذب فيكم » . ولم تزل الذاكرة تحفظ  
قصة أولى بها أن توضع بجانب القصص التي تنسب إلى الشرقيين

للسخرية منهم . ولم يفت الصحف الوطنية أن تشير إلى قصتنا هذه في حينها . غير أننا نروها تفككة للقراء

قالوا في السنة الماضية إن أحد معاوني الادارة المصريين رفع قضية على الحكومة يطالبها بتعويض لأنها افصلته عن وظيفته بسبب غير قانوني . أما السبب الذي قضى بفصله فهو أنه عظيم الكفاءة شديد الذكاء . ولذلك كان ينتقد أعمال بعض زملائه فعلم المفتش الانكليزي خبره فأمر بنقله إلى إقليم آخر ظهرت فيه كفاءته العظيمة وذكاءه الشديد أيضاً . ولكن المفتش علم ذلك مرة أخرى فكتب بجمرة قلم واحد يأمر بفصله . ومثل هذا الأمر لا بد مطاع ...

هكذا رويت القصة وهي لم تخل من بيان الذنب الذي قضى أن يفصل صاحبها من عمله . ولكن ذنبه أنه كفء تام الكفاءة ، ذكي عظيم الذكاء ..

فهل يفهم الناس من هذا أن الموظف المصري المستقيم الجدير بأن يخلد في وظيفته هو الغبي العاجز ؟ وهل سمع الناس أن الغباوة والمجز شيطان لا بد منهما في الوظائف الادارية ؟ وكيف ينتظر بعد هذه القصة أن يصلح أمر الادارة في مصر إذا لم تنير الحال غير الحال ؟!

. ومن بدائع اللورد كرومر قوله في تقريره سنة ١٩٠٥ فيما  
تصلح به حال الموظفين الانكليز : « وقد اقترح بعضهم حديثاً أن  
يتعلم المرشحون أموراً تفيدهم في مناصبهم الرسمية في مصر والسودان  
وشرع في إخراج هذا الاقتراح من القوة إلى الفعل على سبيل  
التجربة » ولم يعلم أحد كنه هذه الأمور غير اللورد والمقترحين .  
والمرشحين المتعلمين والأساتذة الذين يعلمونهم . ولكننا علمنا أنها  
أمور تفيدهم في مناصبهم بمصر والسودان . فأية ناحية كانت  
تحتاج إليها فائدة تلك الأمور ؟ ناحية مصر أم ناحية انكلترا ؟  
هذا شيء تنطق الحقائق الواقعة بجوابه ..

علم المصريون كل ما تقدم ، وعلموا مصيرهم معه فلم يطمشوا  
إليه . بل كشفوا غطاءه بالنقد الصحيح . وجعلوا يتقون عاقبته  
بالعمل على قدر التحرك في القيود الثقيلة . نهضوا بالتعليم فكانت  
آثار الأمة فيه أضعاف آثار الحكومة . وجاهدوا في تهذيب  
الأخلاق وصيانة العادات وحفظ القومية ، فرفعوا منار الأمة  
حتى سطع نوره فرآه العالم . واليوم ترفع الحجب عن الحقيقة  
المستورة . فيشهد الناس أن في مصر أمة راقية . وأنها رقت بنفسها  
بين عقبات تعمي القادر الطليق . كذلك فمل البطل يدرك الفوز في  
معارك الأبطال . ولو أنها لم تكن كذلك لما كانت سلالة أبائنا الأولين



## ١١

« ان مسائل التعليم الأهلئ كيفما تنوءت طرق  
حلها ذات اتصال بحياة الامم وفنائها »  
اللورد مورلى

### سبائئ التعليم

نصف التعليم فى مصر . — على سبيل التسامح — بأنه أجنبئ  
ووطئئ . أما الأجنبئ فالذى تأسره مدارس الجالئيات الأجنبئة .  
وأما الوطنئ فلأمة فئه نصئب عظمئ . ونصئب الحكومة هو  
البقية الضئئلة

هذه صورة الواقع على حقيقتها وعلى ما يشهد التاريخ من أنها  
قديمة . وقد عرف الناس جميعاً أن التعليم الحكومئ فى مصر  
كالمرض الذى أعضل داؤه . فلا هو يموت ليرئح أهله من بلواه  
ولا هو يشئئ ليرجئ نفعه وتؤمل فائده

وبدل الواقع الذى تبصره العين ، على أن التعليم فى مدارس  
الجالئيات الأجنبئة كان منذ وجدت هذه المدارس فى مصر ولم  
يزل كذلك كالتربة الخصبئة ربو نباتاً ، ويزهر غرسها ، وتعطئ  
أكلها وفيراً شهياً . ولا كذلك التعليم فى مدارس الحكومة فهو

كالثربة السبخة . تستغرق جهد الزارع ، وتنهب ماله في نفقتها .  
ثم تقتل البذر الذي يلقى لها

يدخل المصريون مدارس الجاليات الأجنبية ، الفرنسية ،  
والإيطالية والأمريكية ، فتغذوهم ما لا تغذوهم مدارس الحكومة  
هذا أكملوا الدرس بها خرجوا بأهلية تامة ، ووجدوا العدة للحياة  
العملية ، فلا يشعرون أنهم آلات أخرجتها المدارس للحكومة فقط  
كما وصف اللورد كرومر غرض التعليم في مدارسها . ويذهب  
المصريون بأنفسهم إلى أوروبا ليستوعبوا ما فاتهم من العلم في  
جامعاتها فيعودون ببضاعة ليست مزجاة يغشون بها كل سوق  
من أسواق العلم والعمل فتروج . أما مدارس الحكومة فيدخلها  
المصري إنساناً ثم يغادرها آلة لا تصالح إلا للعمل خاص معين هو  
خدمة الحكومة . فإذا سدت في وجهه أبواب هذه الخدمة انفتح  
له باب آخر واسع . هو باب العطلة ، باب الفراغ ، باب الضياع ،  
باب النكبة التي تصيب الأمة في شبابها ..

فهل المصريون أذكاء في مدارس الجاليات الأجنبية وفي  
جامعات أوروبا ، أغنياء في مدارس الحكومة المصرية ؟ هل تنير  
فطرة المصريين إذا دخلوا مدارس غير مدارس حكومتهم ، ولا  
تنير إذا دخلوا مدارسها ؟ هل العلم شيء ، يتقيد بالمكان و الزمان

فهو يشرق في تلك الجامعات والمدارس ، ولا يشرق في كل مكان ينسب إلى وزارة معارفنا ؟ كلا : لا شيء من هذا كله . وإنما الأمر كما ستري

قال اللورد مورلي : « إن مسائل التعليم الأهلي كيفما تنوعت طرق حلها ذات اتصال بحياة الأمم وفنائها » . ماذا يقول اللورد مورلي ؟ يقول إنك تستطيع أن تتخذ التعليم الأهلي سبيلا للحياة كما تستطيع أن تتخذه سلاحاً للفناء . ونحن لا نقول إن تعليم الحكومة كان خلال ثلث القرن الأخير أحد هذين الأمرين . ولكننا نرسم له ولما فعل به صورة صحيحة لا تنكرها سياسة التعليم نفسها لأن لها يداً في رسم هذه الصورة ، ثم للناس أن يقولوا ما شاءوا

ألفت الحكومة أثناء سنوات الحرب لجائناً كثيرة . منها ثلاث فرغت من عملها ووضعت تقاريرها وهي : لجنة التجارة والصناعة ولجنة التعليم الأولى . ولجنة الشؤون الصحية . وقد وصفت كل واحدة من هذه اللجان الثلاث النقص الذي رأت في عملها الخاص واتفقت كلها على أن النقص هائل عظيم . وأرجعت كلها سبب هذا النقص الهائل العظيم إلى فساد التعليم في البلاد . ولكن كل هذه اللجان لم تجد في نفسها قدرة على أن تصف للناس علة فساد

التعليم وتشهدهم على سببه الصحيح . اللهم إلا لجنة التعليم الأولى فقد أشارت إلى جزء من العلة وشرط من السبب فقالت : « إن مجموع ما تنفقه الحكومة المصرية على التعليم ٤٦٥٠٧٥٣ جنيهًا في السنة وهو يعادل ٢ في المئة من مجموع الميزانية العمومية للمصروفات » . سم قالت : « وإذا قوبلت نسبة صافي المصروفات هذه وهي ٢ في المئة بمثلها في الممالك الأجنبية ظهر فرق مدهش جداً . لا من حيث ميزانيات الدول المعطى فقط . بل من حيث الممالك التي حالها المالية قريبة من حال القطر المصري لأنه إذا اتفق على التعليم من ميزانية الحكومة المصرية بنسبة ما يتفق في رومانيا أو بلغاريا مثلاً حيث تبلغ هذه النسبة ١٠ في المئة من مجموع الميزانية لزم أن تزيد اعتمادات التعليم في مصر دفعة واحدة من ٤٦٥٠٧٥٣ جنيهًا إلى ٤٣٣٥٠٠٠ . وأبانت اللجنة في موضع آخر الوجوه التي يتفق فيها هذا القدر من المال ثم خلصت إلى نتيجة لا تؤدي إلى الفرع أكثر مما تنطق بالمار . إذ قالت : « إن ما تنفقه الحكومة في الحقيقة من إيراداتها الخاصة في كل سنة على تعليم الشعب نحو ١٩٠٠٠ جنيه فقط » .

هذا جزء من العلة وشرط من السبب . على أن لجنة التعليم الأولى لم تجد قدرة على الجهر بهذه الوصمة المسجلة إلا بعد أن

أعذرت للحكومة بعذر فرغ الناس من إبطاله . فقد قالت في صدر تقريرها : « والحقيقة أن حال مصر المالية كانت إلى عهد قريب تمنع من إعداد وسائل التعليم على اختلاف فروعه ومن سد حاجة الأمة إليه سداً وافياً » . فهذه الحقيقة مقلوقة إلا أن يكون المقصود بالمهد القريب أول المهد بحكم محمد علي . فهل تقصد اللجنة ذلك ؟

إن العلة الصحيحة والسبب الحق فيما نطق به لسان السياسة التي قعدت على صدر التعليم في مصر وما نطقت به السنة أعوانها ولقد كانت هذه السياسة قلب الحقائق البديهة ولا تتق أن يسمع العالم أجمع ما تنني به على من يقلبون الحقائق . قال يعقوب أرتين باشا الذي لبث وكيلاً لوزارة المعارف عمراً طويلاً ، والذي شرفه السادة الانكليز بثقتهم في كتاب له يسمى — التعليم العام — : « إن وجود المجانية في المدارس الابتدائية في مصر أمر غير عادل ومخالف للذوق السليم . وهي في الواقع في غير محلها فضلاً عن أنها خطر على موظفي الوزارة » . إلى هذا الحد تبلغ الجرأة برجل صعد إلى أرفع المناصب في حكومة مصر على أكتاف الأمة . فيرى أن المجانية في المدارس المصرية الرسمية ليست من العدل ، ولا من موافقة الذوق السليم ! بل إنها خطر : خطر داهم عظيم يفترس

الموظفين كما يفعل الوحش بفريسته ... ! ولم يكن رأي هذا الرجل العادل ، السليم الذوق ، المشفق على الموظفين من اقتراح المجانية ، رأياً من عند نفسه ، أقنعتة التجربة أو أقنعه العلم بصحته . ولكنه كان وحيًا يهبط عليه فيصدم به أداء لأمانة التبليغ . فما كان أعظمه أمانة ، وما كان أشق مصر بأمانته ::

قال اللورد كرومر في تقريره سنة ١٩٠٠ : « كانت نسبة المجانية في مدارس الحكومة سنة ١٨٨٩ — أي قبل الاحتلال -- ٩٥ في المئة . أما في السنة الماضية فكانت نسبة الذين يدفعون المصروفات المدرسية في المدارس الابتدائية الأميرية ٩٨ ونصف في المئة وفي المدارس الثانوية ٩٦ في المئة وأنا واثق أن هذه السياسة ستظل متبعة بثبات حتى تأخذ طريقة التعليم المجاني الغاء تاماً أو تكون في حكم ذلك » .

صدق اللورد كرومر ، وصدقت ثقته . فان عينه لم تنم عن تحقيق العمل بالسياسة التي وثق أنها ستظل متبعة ، حتى لقد وصف اغتباطه بنجاح هذه السياسة بعد زمن قصير ، فقال في تقريره سنة ١٩٠٤ : « ومما يستحق الذكر أن تلميذاً واحداً فقط يتعلم مجاناً في المدارس الابتدائية » . نعم هذا عمل عظيم يستحق الذكر لأنه قضية على الأمة بالجهل

أي شيء أرسلته السماء على مصر حتى أصيبت في العلم ، في روح الحياة ، في سر البقاء ، في مطامع النور ، فضربت عليهم اضراب التعليم . وقضي على المجانية في مدارسها . هل هكذا بطش السياسة ؟ تكون نسبة المجانية سنة ١٨٧٩ - ٩٥ في المئة ثم تكون نسبة الذين يؤدون أجور التعليم سنة ١٩٠٠ - ٩٨ في المئة ؟ أكانت مصر غنية فافتقرت ؟ أم كانت سفينة السياسة فرشت ؟

أنعت البعث العلمية ، فلا أحد يذهب إلى أوروبا في ظل الحكومة المصرية يتلقى الفن والعلم . اللهم إلا بضعة أفراد عادت وزارة المعارف فجعلت ترسلهم إلى انكلترا فقط . وقد وصف ذلك المسيو لامبير آخر ناظر فرنسوي لمدرسة الحقوق المصرية فقال : « إن أمر الارسالية مدهش فقد كانت قبل أن يتولى الانكليز مقاليد المعارف في مصر موزعة في أوروبا ولكنهم قصروها الآن على انكلترا . وبالنسبة إليهم اختاروا المدارس الراقية التي تخرج للمصريين رجالا نافعين يماثلون الانكليز المتعلمين . فانهم اختاروا مدارس كمدرسة بوردو في آين وورث على مقربة من لندن وهي مدرسة تخرج طلبة في كفاءة حاملي شهادة البكالوريا المصرية . وليس المسيو لامبير وحده صاحب هذا الرأي . فهناك كثيرون غيره من الانكليز النصفين يشاطرونه ما يرى . بل لا يقال إن

ذلك رأي نظري فانه الواقع الذي لا ينكره أحد .  
أنظروا ، أين المدارس التي أنشأها محمد علي ؟ أين المدارس  
العالية لا في القاهرة وحدها ، بل في مدن القطر من إسوان  
حيث كانت المدرسة العالية المعروفة باسمها إلى الاسكندرية ؛ إنها  
أطلال تجيب من بكاهها ، وتنعى من بناها . ذلك ماض له شمس  
تشرق في نفوس المنصفين فلا يملكون إلا أن يقولوا الحق . في  
نور هذه الشمس شهد هنررز في كتابه « مصر في عهد الاحتلال  
الانكليزي » فقال :

« ألفت ٢٢ مدرسة تجهيزية من مدارس الحكومة سنة  
١٨٨٣ وثلاث مدارس فنية ومدرسة المعلمين ومدرسة المساحة »  
وإننا لنجد أمامنا فيضاً عظيماً من تلك الشهادات ومن  
الأقوال الرسمية نفسها لا نريد أن نطيل به . ولكننا لا نكتم  
فضل الأمة فيما نشب من معارك التعليم بينها وبين سياسته .  
وقد كانت الأمة دائماً ظافرة . أليس ذلك لأنها تأبى أن تضل  
سبيل الحياة ؟؟

لذا الفشل في تجربة ثلث قرن لا يدل على خير منتظر ، فإن  
كان الفشل عن عجز ، فليس وراء العجز في ثلث قرن مطلب  
للقدرة . وإن كان عن قصده ، فلا يتحول الإنسان عن قصده



المطلوب . إن المصلحتين متناقضتان . والسبيلين متعاكستان .  
والحق في جانب واحد ، هو جانب الأمة . ولا يرجع صاحب  
الحق عن حقه . ولا عهد للناس بحق يضيع ووراءه مطالب . فان  
صانع كان شذوذاً في سنة الاجتماع !!



# ١٢

« اما الجنس الذي هو أهل للعمل فسيحيا حتما  
فإن كل أمة عاملة سينقذها العمل منقذ كل عامل »  
المسيو كليا نصوص سنة ١٨٨٢

## الرأى العام

للشعب المصري وطن قديم ، وله تاريخ جليل ، وله حب  
لوطنه ، وعلم بتاريخه . فهل عليه ذنب ، إذا أحب وطنه وأخلص  
إليه ؟ وهل عليه لوم ، إذا استضاء بتاريخه فشى في نوره يستعيد  
المجد العظيم ، ويطلب الحياة الغالية ؟؟

كأنما يراد من الشعب المصري أن ينفذ يده من وطنه ،  
أو لا يحبه على الأقل . ولكن هل يحب الوطن لأنه رقعة يابسة  
من الأرض تغطى الأقدام مثلها في كل ناحية ، أو لأنه ملاذ أهله  
ومنبت حياتهم ، وموطن عزمهم ، والدار التي يعيشون بها أباء  
أعزاء ، لا يمسم فيها صنيم ، ولا ينالهم ذل ؟ إنما يحب الوطن لذلك  
فلذا أريد المصريون على أن لا يحبوا وطنهم ، ففي طي هذه الارادة  
شيء آخر هو أن يكرهوا أنفسهم ما داموا لا يحبون وطنهم ،  
أي أن يكونوا أعداء أنفسهم أما قبول ذلك ففصرب من الجنون ؟

وأما طلبه فأبلغ جواب عليه أن يقال لصاحبه : اكره أنت وطنك  
أو حاول أن تكرهه . فإذا استطعت فاطلب من غيرك أن يكره  
وطنه أو يحاول أن يكرهه ...!! (١)

متى كان حب الوطن غريزة في الفطرة كان لا بد أن يقصد  
أهل الوطن مقاصد تبلغ به مكان العز والشرف . وأول ما يقصدونه  
أن ينظروا ان كان وطنهم مأخوذاً من أيديهم أو معرضاً لذلك  
سمعوا ليستخلصوه . وإذا ذاك يأتلف رأيهم ويجمعوا أمرهم حيث  
تكون الناية واحدة . وقد لا يكون الوطن مأخوذاً ولا  
عرضة للأخذ فتصح النية على العمل لرفعة شأنه حيث تكون الناية  
واحدة ايضاً ، وفي كلتا الحالتين يتكون ما يسمونه الرأي العام .  
وربما لا يكون الرأي العام في الامة الواحدة متحد المجرى  
ولكنه على كل حال يكون متحد الناية . فإذا جاءت الطامة كان  
واحداً في مجراه وغايته ، فترى الامة كلها حزباً واحداً وقد كانت  
أحزاباً شتى

---

(١) قال المستر روبرتسون سنة ١٩٠٥ في مقدمته « لرسائل مصري  
لسياسي انكليزي كبير ما نصه : « ان صاحب هذه الرسائل ليس متطرفاً  
ولا هو مثير فتنة مراقب نبيه معتدل قد شحذ قريحته بيمزية حب الوطن  
هي المزية التي يعتمد عليها الانكليز في حل جميع مشاكلهم الخاصة ولكنهم  
يخلون على مصر بشيء من ذلك »

في مصر رأى عام قديم لم تختلط عليه السبل ، ولم منحرف عن قصد الغاية ، وللا رأى العام المصري قوة مثله في كل بلد وإن لم يكن له بطشه ، لا لمعجز فيه بل للاناة والتؤدة ، ولا بلاغ العالم أنه موجود وأنه غير باغ ولا ماد ، ولان المصري يريد أن يكون الانصاف عدته والحق سلاحه ، كيلا يقال انه لم يحكم انصاف العالم في قضيته ، أو انه عمل وحده فليترك وحده

عرفت قوة الرأي العام المصري في تولية الملوك ، فهو الذي حمل الدولة العثمانية على الرضا بمحمد علي واليا لمصر . هو الذي طلب ذلك وأجمع عليه منذ قرن وربع قرن فلم تجدد الدولة العثمانية وهي في عظمتها بدأ من أن تكون عند إرادته

وعرفت قوة الرأي العام المصري في تقييد الحاكم الفرد المطلق منذ ثلاث وخمسين سنة ، فقد أنشيء المجلس النيابي المصري سنة ١٨٦٦ في أول العهد بحكم الخديو اسماعيل . وهنا يجب أن نلتفت الى أمر لا بد منه ، وهو أن اسماعيل كان يومئذ طليقاً من كل قيد ، آمناً كل رقيب ، كان يومئذ بعيداً عن اشباح الحوادث التي وقعت في آخر ايامه ، فلا يقال انه رضي أن توضع في يديه قيود الحكومة النيابية وأن تقوم سلطة الامة بجانب سلطته ليرخدم أوربا أو ينش ساستها . ولم يخلق اسماعيل من طينة غير طينة

الملوك والامراء المطلقين حتى تكون الحكومة النيابية خاطراً في نفسه لم يشعر به أحد سواه ، وحتى يبادء الامة بهذا الخاطر غرة خيف لا يكون قد أحسه من جانبها أو لا تكون الامة قد أدركته نور أمنيته

وعرفت قوة الرأي العام المصري سنة ١٨٨١ يوم توفرت عزيمة الأمة كلها على مقصد واحد ، فأعاد لها الخديو توفيق مجلسها النيابي لا إعطاء بل أخذاً . حتى إذا جاءت سنة ١٨٨٣ بطشت القوة الطارئة بهذا المجلس فقضت عليه

وعرفت قوة الرأي العام المصري في الحرب الأولى التي نشبت بين الدولة العلية واليونان ، فقد كانت مصر تغل بأحرما تغل به تركيا نفسها . ولم يكن ذلك لأنها تريد أن تظهر تركيا فتقوى على مسح الاستقلال المصري . بل لأن السيادة الاسمية العثمانية كانت هي الصخرة الصلبة أمام القضاء على هذا الاستقلال وكانت الأمة تعلم ذلك ، وتعلم أن في قوة تركيا بقاء هذه الصخرة حتى يزيلها المصريون أنفسهم ، أو يزيلها غيرهم ممن لا يطمعون في أن يضموا مكانها صخرة أقسى منها

وعرفت قوة الرأي العام المصري في حادثة العقبة : وكان غليانه إذ ذاك استمساكا بتلك السيادة الاسمية خشية أن ينقطع

خيبتها فترزح الأمة بسيادة فعلية تذهب باستقلالها الداخلي ،  
وتضاعف عناءها في طلب الاستقلال التام

وعرفت قوة الرأي العام المصري في حادثة المحكمة الشرعية  
العليا يوم أغلقها قاضيتها حتى ترفع يد العتب بالأحكام القضائية ،  
فكان رأي الأمة عضده القوي

وعرفت قوة الرأي العام المصري ، يوم نكب العدل ونجحت  
الإنسانية بمحاذنة دنشواي ، سنة ١٩٠٦ فثارَت النقمة على الجبروت  
المتعبد في كل دار ، وارتفع صوت الغضب حتى أطبق على الاقطار  
وحتى سجلت الوصمة على أصحابها ، وخرج العدل مرفوع الرأس ،  
وظفرت الأمة بما شهد الناس من حياتها ، وإن لم يكن ذلك كله  
قد ردت عليها فائتًا ، ولا أحيًا ميتًا

عرفت قوة الرأي العام المصري منذ تولى محمد علي ولاية مصر  
وفي كل ما قدمنا من الحوادث وغيرها مما تعاقب بعدها ولم يزل  
ناميًا قويًا ، يتجلى في كل مواقفه المشهودة ليدل الناس على أن  
الأمة لا تهين عن تفرق ، ولا تؤخذ لجهالة ، ولا تغلب افتقاراً  
لأهلية الاستقلال

كان الرأي العام المصري يقظًا شديدًا . لأنه كان ولم يزل  
معتزًا بالعدل ، مؤيدًا بالحق ، فلم يكن يخشى أن تكون له شدة في

طلب الحق ، وصلابة في إقامة العدل .

وفيما بين هذه السنة التي نحن بها سنة ١٩٠٦ كان شأن  
الرأي العام المصري عظيماً فقد عزّ جانبه ، ورسخت قدمه ، وبلغ  
من القوة مكانة الرأي العام في أعز الأُمم جانباً ، وأرفعها مكاناً

ألحت الكوارث على الأمة من كل ناحية فكانت كالمطر النفاق  
يسيل على المرتفعات والآكام كما يسيل في الأغوار والأودية .  
ولكن هذه الكوارث كانت تعطي الرأي العام قوة بدل الضعف  
وتزيده نوراً بدل الظلام . لم يهب أن تلح الكوارث عليه ، بل  
سار تحتها وهي مرعدة مبرقة . فخلص بقوته الروحية وبقوة الحق  
الذي في يده إلى أعمدة الجبروت فهزّها .

هل ارتعدت الأمة بكوارث الأيام فلم تظهر شديدة سيفه  
حقها إلى اليوم ؟ فإذا يراد أن يكون من أمةٍ هذه حياتها ؟

إنّا نحن ذلك الجنس الذي قال المسيو كليمانصو فيه سنة ١٨٨٢  
« أما الجنس الذي هو أهل للعمل والنظام - يريد الجنس المصري -  
فسيحيا حتماً . فإن كل أمة عاملة سينقذها العمل متقد كل عامل ،  
وقد بقينا نحن المصريين ذلك الجنس وزدنا عملاً ونظاماً ، فإن لم  
ينقذنا العمل فلا أنقذ أمة في الأرض

## القسم الثانى

### ١

« وهل يعقل أن تفشل حكومة وطنية  
مثل فشلنا فى مدة ٢٥ سنة مضت »  
المسترويرتون سنة ١٩٠٨

#### نظرة اجمالية

يقولون إن لجنة « اللورد ملتر » ستفد على مصر لتضع نظاماً  
جديداً للحكم غير الأنظمة الكثيرة التى تهاورتها التجربة خلال  
ثلاث القرن الأخير . فلقاتل أن يقول — وقد يكون قوله حقاً —  
إن التجربة الجديدة على فرض أنها ستكون لا تشذ عن التجارب  
الأولى ، أي إنها ستكون عرضة للمسوخ والنسخ ، والمحو والاثبات  
ما دام الفرض واحداً لا يتغير ، وهورسوخ القدم فى مصر إلى  
ما شاء الله

لفرض أن تجربة المستقبل ستستغرق ثلاث قرن آخر . ولننظر  
اليها بعين الحق والعدل ، أفلا نرى حينئذ أنها طريق رسم إلى  
غرض يخالف الفرض الذى تطلبه الأمة ؟ لا يستطيع أحد أن



يقنع العقل البشرى بأن هذين الفرضين متفقان أو يمكن اتقاقهما .  
فالتاريخ يشهد بغير ذلك ، وحوادث التاريخ لا تدل على أن أمة  
حاكمة تتبرع من نفسها بوسائل الحكم الصحيح لأمة محكومة  
كرماً منها وفضلاً . الشهادة التاريخية التي كانت صادقة في كل  
وقت تقضي أن تسير الأمة الأولى بالأمة الثانية على جسر من  
القطيعة ، وفي سبيل لا يوجد الخلاص النهائي عند غايتها

إننا ليسهل علينا جداً أن نقول إن مصر تستطيع أن تصبر  
ثلاث قرن جديد لو أنها وثقت ثقة صحيحة بأن القوم سيودعونها  
بسلام يوم ينتضي أمد . ولكن هل في الأرض شيء يستطيع أن  
يحمل هذه الثقة في محل الايمان من قلوب المصريين ؟ إن كل ما يمكن  
أن يقال لمصر إنه مطلع تلك الثقة ليس إلا وعوداً وعهوداً وأقساماً  
مغلظة ، ومواثيق مبرمة ، بل أكثر من ذلك معاهدات دولية  
وقرارات برلمانية . غير أن مصر تستطيع مع هذا كله أن تقول :  
إن الوعود والمهود والمواثيق والأقسام ، لا تخدع إلا الساذج  
ولا تنزع الأبله ، بل أنها تنزع الثقة من الصدور كلما تجددت  
واشتدت ، لا : بل تستطيع مصر أن تقول فوق ذلك : إن  
هذه الأساليب علمتي أن أكون من اليوم غير ساذجة ولا بلهاء  
كان الميثاق من قبل مصوغاً في هذا الأسلوب : ولا تنوي

البقاء في مصر إلى الأبد . ولا نطمع أن نبسط يدنا بحماية عليها ، فكيف كان هذا الميثاق بعه ؟ مضت سنة وأخرى ، وعشر وعشرون ، ثم كاد القرن ينتصف ، فإذا رأينا ؛ لم نر إلا عملا وأنظمة ووسائل وتدابير لا يحتاج إليها الذي ينوي الارتحال ، بل هي حاجة من ينوي البقاء إلى الأبد ، على أن الأيام طاحت بصدق الشطر الأخير من الميثاق ، فلم يصدق ما قيل من إنهم لا ينوون بسط الحماية ، ونحن اليوم نسمع ميثاقا جديدا لولا أن مصر تحركت حركة الحياة والاباء والشرف لما سمعناه . هذا الميثاق الجديد هو أن المدل والرحمة قضيا أن يدرب المصريون على الحكم الذاتي ، ثم يكون لهم هذا الحكم !!!

لا ريب أن الناس جميعا ينظرون صورة هذا الميثاق فيرونها في الأرض يننا يرفعون بأبصارهم إلى منزلة الأمة ومكان أمنيته وموضع حقها ، فيرونها في السماء

يريدون أن يدربوا المصريين على حكم أنفسهم بأنفسهم ، ثم ماذا ؟ لم يفضلوا فيقولوا ماذا يكون بعد ذلك ، ولكننا نحن نستطيع أن نقول ، وبستطيع المدل أن يسمع حديثنا فتطيب نفسه

الذي سيكون أحد أمرين : فإما أن نصل إلى غاية الحكم

الذاني . وإما أن لا نصل . وعلى كل حال لا نعرف الوقت الذي ضرب أجلا لهذا الدرس الجديد ، فليكن ثلث قرن كالذي مضى . فاذا وصلنا كانوا قد انتقضوا على أنفسهم وأضاعوا غرضهم . فأي شيء يضطرم إلى إضاعة الوقت والفرض فيما لا يحجبهم . وإذا لم نصل كانوا قد أتموا الاجهاز علينا

إذا كان يراد منا الآن أن تقتنع بأننا سنحكم أنفسنا بأقسننا في المستقبل . وإنهم سيودّعونا وداعا جميلا في يوم لا يعلمه إلا الله . فلماذا لا يكون ذلك اليوم ؟؟؟

وإذا كان القاصر لم يبلغ رشده على يد وصيه بعد أن تولاه ثلث قرن فتى يبلغه ؟ إن القاصر يصف نفسه بالرشد وينسب إلى الوصي ما ينسب إلى كل وصي خشن اليد . حديد التاب . طويل الظفر . ويقيم الحجة على ما يدعى فيقتنع الناس بحجته . فكيف لا يترك لنفسه لبري الناس هل رُشد أو لا يزال قاصراً ؟

لئن كان حقاً ما قاله المستر « روبرتسون » سنة ١٩٠٥ — « هل يعقل أن تفشل حكومة وطنية مثل فشلنا هذا في مدة ٢٥ سنة مضت ؟ » فحق أيضاً ما قاله الانكليزي النصف صاحب كتاب « تحرير مصر » سنة ١٩٠٦ : « لماذا لا نعترف بأن مصر بلغت سن الرشد . وأنها تعلمت ما يكفيها . وأن الساعة قد أتت

لتقوم الأمة المصرية بشأن نفسها . وتدبر أمرها بعقلها . لأن  
آمال القارة الأفريقية كلها معقودة بمصر ؟  
نعم كلا القولين سؤال حق . ونحن أيضاً لا ندرى لماذا لا  
يكونه هذا الاعتراف ؟؟ ولا نعلم كيف يعقل أن تفشل حكومة  
وطنية كفشلهم في ربع قرن ..؟  
أليس في الأرض إنصاف ؟ على أن الانصاف في السماء إذا  
لم يكن في الأرض !!!



## ٢

« اني أقمت في مصر مدة قبل أن تحققت فله  
علمي بموضوع اشتغالي . ووجدت الى آخر  
أيامى في تلك البلاد أني كنت أتعلم في كل يوم  
أمراً جديداً » اللورد كرومر

### درسى في الحكم الذاتي

لو أن رجلاً أنشأ مدرسة ليعلم الأبناء ، أكان يدل على  
مهارته أن تبقى مدرسته نحو اربعين حولاً بناءً تشاه سحابة الجبل  
على رغم أنه يحشوها كل يوم بأساتذة جديدين ؟  
كلا : بل يكون أمر هذا الرجل بين حالين . فهو إما يريد  
أن يكون تاجراً حيث لا يريد أن يكون معلماً . وإما يريد الخير  
ولكنه لا يعرف سبيله . إذن : فهو لا ينفع ، فان تشبث بأن  
تبقى يده آخنة بزمام الناشئين بعد هذه التجربة الطويلة ، فلا  
يكون ذلك حقاً له

هذا مثلنا بين الماضى والمستقبل ، وقد كان الشفيح في بقاه  
الحالة على ما هي عليه ، إننا تلقى العلم والنظام والمدنية في مدرسة  
السياسة العالية ، فإذا جاء اليوم الذى نصبح فيه أهلاً للاستقلال

تركنا أستاذنا ومضى مشكورا . ولكننا نسمع الساسة والكتاب الانكليز يقولون ما قالوه من قبل . يقولون : إن الذى مضى كان تجربة اقترن بها الفشل . واللورد كرومر يؤيد ذلك بقوله :

« كانت حكومة مصر هذه - يشير إلى حكومتها منذ سنة ١٨٨٢ - تجربة واختباراً فى باب الادارة الشرقية فانتهت التجربة ببعض الفوز مع ما فى هذه الحالة من المساوىء والميوب ، غير أنهم يقولون الآن : فلنأخذ فى تجربة أخرى عسى أن يقارنها الفلاح . ولكن أسفار التاريخ تعترف بعجزها عن أن تطوي بينها خبر أمة غالبية وضمت سلاح الاستقلال فى يد أمة مغلوبه

إننا لا نتدر هذه الدعوى بالرفض المطلق . فإن وراء البحث حجة الحق الناهضة ، فلنتنظر ماذا يراد أن يكون ، ولننشر صحيفة هذا الدرس الجديد ، لنشم ما يفوح منها

يقولون : سنتوسع فى الخصائص النيابية . وسنمنحكم نعمة صغرى من نعم الحكومة النيابية لتصعدوا منها إلى النعمة الكبرى ، هذا قول أهل فيه الطرف الذى يصيح بحقه ، وظهر به تجاهل الحق المطلوب ، فالمصريون يطلبون الاستقلال التام لأنه حقهم الطبيعي المؤيد بالمعاهدات ، الثابت باجماع الناس ، فكيف يقال لهم : ماذا تطالبون من التوسع فى الخصائص النيابية والأخذ بيد التعليم

ومداواة الادارة من أمراضها ؟ أليس هذا نهاية ما يكون من  
تجاهل المعارف ..؟

لا تزال السياسة تطلع على الناس بعجائب يود العقل البشري  
أن تخسف به الأرض قبل أن تنسب اليه ، عجائب تقطعت بها  
الأسباب ، ورجع آخرها على أولها بمحاول التهديم والتخريب .  
فن بدائع السياسة الانكليزية أن لها رأيا لم يزل يتردد بلسان  
التوكيد ، فهي ترى أن الأوربي محروم من التوفيق كلما أراد أن  
يعرف نفس الشرق معرفة تكشف له عن ميوله وطبعه وعاداته ،  
وخلقه ، ولا يفتح الله عليه بهذا التوفيق مهما أقام في الشرق ،  
والصواب أنه رأي صحيح على غير اطلاقه . فاذا اُخصص التعميم  
فصارت كلمة « أوربي » في عرف الساسة الانكليز مرادفة لكلمة  
« انكليزي » بحيث لا تؤدي أكثر من معناها كان حقاً ما يرون  
فالانكليزي لم يفهم الشرق ، ولا عرفه ، ولا بلغ من حقيقته في  
ذاته وعاداته وخلقه وحياته ما ينبغي أن يبلغه ليملك زمامه . وليس  
سبب ذلك أن النفس الشرقية مستكنة في صندوق من الحديد ، بل  
سببه أن النفس الانكليزية مترفعة عن أن تقف بجانب النفس  
الشرقية . فهي من وهم صاحبها في برج فولاذي يعلو بها عن منازل  
البشرية . لا بشرية الشرق وحده ، بل بشرية الغرب أيضاً !!

يقول اللورد كرومر في كتابه — مصر الحديثة — : « إني أقمت مدة في مصر قبل أن تحققت قلة علمي بموضوع اشتغالي ، ووجدت إلى آخر أيامي في تلك البلاد اني كنت أتعلم في كل يوم أمراً جديداً » .

كذلك يقول اللورد كرومر . فيشهد على نفسه أنه أقام في مصر مدة كان يعمل فيها عمله المعروف — وهو عمل الحاكم المطلق الذي لا ينازعه أحد — على غير علم تام بموضوع عمله . واللورد كرومر هو الذي يقول قومه إنه رجل فذ خبر مصر خبرة لم تتفق لانكليزي سواء . ومع ذلك فقد عمل في مصر مدة وهو لا يعلم موضوع عمله ، على أنه بقي ناقص العلم بما لا بد منه لمن يستحل أن يقوم مقامه في مصر . فهو نفسه يقول إنه أدرك إلى آخر أيامه في هذه البلاد أنه كان يتعلم كل يوم أمراً جديداً . هذا مبلغ علم اللورد كرومر بمصر ، وهو الذي أقام فيها نصف عمره كما قال . فما مبلغ علم غيره ؟ وأين القدرة على تأهيلنا للاستقلال إذا توغر حسن النية ؟

بل نحن نبالغ في التسامح إلى ما لا يحتمل التسامح ، نحن نقول : فليجلسوا لتضعوا صورة الدرس الجديد في الحكم الذاتي ولكن هل يتسع المجلس لنا ولكم ؟ هل تشركوننا في وضع هذه



الصورة ؛ فإن اشتركنا وإياكم فأنحن وإياكم بمتفقين . نحن نريد صورة لا نأخذها درساً مجهولاً لأننا لم نعد نجعل هذا الدرس ، وأنتم تريدون أن نكون تلاميذ نتلقى درساً لا نجعله . نحن نريد صورة يرى الناس فيها جمال سلطة الأمة ، وأنتم تريدون صورة يرى الناس فيها مظهر إخضاعها . نحن نريد حكماً ذاتياً يمشى بين صفوف من جلال الاستقلال ، وأنتم تريدون شيئاً موصوفاً بأنه طريق الحكم الذاتي وهو في الواقع ليس كذلك

هذه حالنا وإياكم إذا ضمنا وإياكم مجلس واحد تخلق فيه صورة الدرس الجديد . فإذا أيتم الاشتراك فأنتم بفاعلين شيئاً ، ولا قادرين على شيء . لأنكم لا تعرفوننا فلا تعرفون ما ينفعنا . بل قد لا تعرفون ما ينفعكم لدينا

كأننا ننظر إلى المجلس النيابي الذي يقال إنه سيكون مظهر سمة الخصائص الدستورية ومجال المنح التي تدني يد الأمة من آلة الحكم . كأننا ننظر إلى هذا المجلس في الصورة التي سيولد بها . ولكن كأننا أيضاً نرى نوابنا فيه نياماً على مقاعد ، لأنهم لا يملكون أن يتناولوا مطالع الحياة بالعقل الفياض والرأي الراجح وكأن كل ما سيجتمعون له أن ينظروا في ضريبة الخفراء وعشور النخيل ، وتأديب العمدة ، ومسائل الأمن العام ، وأشكال التعليم

الأولى ، وما يسمى « بدل الانتقال والسفر » للموظفين . الخ الخ  
وما أشبه أن تكون هذه الأشياء أوليات لا تحتاج إلى مجلس  
نيابي ...

إن الدرس الذي يراد أن نتلقاه ، كالدرس الذي تلقيناه من  
قبل في موضوعه وغايته ، ما دام على الصورة التي لمخناها في صحف  
أيامنا الحاضرة !!



# ٣

« نرى لهذه المسألة حلاً واحداً وهو أنه  
ينبغي لمصر أن تأخذ عدالتها بيدها »  
صاحب كتاب « تحرير مصر »

## درس في القضاء

لعل الدرس الذي يراد أن نلتقاه لاصلاح القضاء المصري ،  
هو الدرس الذي وضع اللورد كرومر موادّه وعناصره منذ كان  
لا يرى أن يصلح القضاء إلا بالناء الامتيازات الأجنبية  
نم : هو هذا الدرس القديم . هو الذي لم تنب عن الأمة  
خوافيه فاعترضته . وهو الذي طارت الآمال بأصحابه تحت غبار  
الحرب فآلقوا له « لجنة الناء الامتيازات الأجنبية » وجعلوا روحه  
ما يسمى توحيد القضاء . هو الأمل المنتظر ، والعمل المدخر .  
غير أنهم لم يحكموا نسج شبّاكه ، فاستطعنّا أن نرى من تقويها  
شبح المستقبل الخيف

لا ريب أن شريعة العدل لا تمشي نزيهة طاهرة إلا أن  
تكون صالحة للزمان والمكان . وليس معنى ذلك أن تكون صلتها  
بهما زمنية ومكانية ، بل معناه أن تكون هذه الصلة بشرية ترجع

إلى أهل المكان الذى تشترط صلاحيتها له ، وتوافق أهل الزمان الذى تشترط له هذه الصلاحية فى مكانهم . فعدل الشريعة الموضوعة مستمد من روح الاجتماع الخاص ، من العادات والأخلاق واللغة والدين والقومية ، ولكن القوم يريدون أن يخالفوا هذه السنة الطبيعية حين يضعون شريعة إصلاح القضاء المصرى ، أو تقويضه وإقامة قضاء آخر فى محله

ليست اللغة ولا الدين ولا الأخلاق ولا العادات فى شيء من الشريعة التى لا يريدون التحول عنها ، ليست منها فى شيء قليل أو كثير ، وليس ينتظر أن تكون منقاط ، ما دام النظر إليها فى هذه الشريعة ينقض الفرض ويعكس المطلوب . ولو أنه أريد ، أو لو أنه يراد أن تكون إحدى هذه الخصائص القومية فى شيء من الشريعة القائمة بذهن السياسة ، لما ألفت « لجنة إلغاء الامتيازات وتوحيد القضاء » على نحو ما ألفت ، بل لما أجاب « السير برونيات » نقابة المحامين الأهليين ذلك الجواب الصريح المرء ، حين طلب أن يمثلهم أمام اللجنة فرد واحد فقالوا : إن رجلا واحداً لا يمثل أمة كاملة فى وضع شريعته . فقال : ليس من الضروري أن يكون فرد ولا أكثر من فرد

ترك ما نصيب المسألة للمادية من عدل هذه الشريعة الجديدة

فقد يكون ما يصيبها أهون من غيره ، وقد يصبر المصري على النكبة التي يجرها عليه قضاء لا أثر فيه لشيء من خصائص الأمة ترك هذا ونظر إلى المسألة الأخرى ، إلى الغاية التي تنتهي إليها تلك الشريعة . أفلا تتمزق الحجب عن المستقبل فتري العين تحتة قضاء معقداً مشكلاً يؤدي إلى نتيجة واجدة ، هي مسخ الروح الاجتماعي ومسح العدل الوطني وتمص روح الاجتماع والعدل جسداً غير مصري عملاً بحكم التناسخ السياسي ؟؟

لا يجوز أن نطمع في غير هذا ، فإنا إذ نطمع في شيء ينأق ما لا بد منه للسياسة . فعل الذين يجهلون العاقبة أن يوطنوا النفس على رؤية القضاء في هذه الصورة ، وتناول الدرس الجديد بهذا المذاق . أما الإصلاح النافع فهو الذي توفرت عليه براهين الحق ووجدته المنصفون من الانكليز وغير الانكليز سبيل المصلحة لمصر ولانكليترا جميعاً

وقد بحث السياسي الانكليزي صاحب كتاب « تحرير مصر » مسألة القضاء المصري بحثاً دقيقاً . وتناوله بعقل وحكمة لم تضعف معهما مصلحة انكليترا نفسها كما لم تضع معهما مصلحة مصر أيضاً . وأبان مصاعب الأخذ برأي « اللورد كرومر » في توحيد القضاء وإبتنائه على خليط من الشرائع الغريبة . ثم قال في تضاعيف بحثه :

« كيف يوجد نظام. قانون يقنع المصريين والانكليز واليهود  
والفرنسيين واليونان وكثيرين غيرهم . وإذا فرضنا وجود مثل  
هذا النظام فمن يستطيع أن يقدمه للموافقة عليه وقبوله . ولو  
فرضنا زوال كل هذه العقبات فإن إلغاء المحاكم القنصلية يكون من  
المصائب الكبرى على مصر من الوجهة السياسية »

وقال بعد هذا : « إن المسألة القضائية أكثر تعقيداً من  
المسألة المالية . ولا يمكن التفكير في أنها تحل بعقد مؤتمر دولي  
يجمع فيه مندوبو الدول ويقررون في شأن القضاء المصري ما  
يرون . فيسمى هذا المؤتمر لتوحيد القانون بأن يضع قانوناً رسمياً  
يطابق أغراض الجميع ، وينفذ في رعايا الجميع . غير أن عقد مثل  
هذا المؤتمر بعيد الحصول جداً ، فانه إذا اجتمع لا يلبث أعضاؤه  
أن يختلفوا شتى الاختلافات . لأن لكل طائفة ديناً ولغة ومبادئ  
تخالف دين غيرها ومبادئه ولغته . ولا يزال من يقول إن مثل  
هذا المؤتمر لا يوشك أن يجمع حتى ينفض . على أننا نرى لهذه  
المسألة حلاً واحداً هو أنه ينبغي لمصر أن تأخذ عدالتها بيدها .  
يجب عليها أن تسأل الدول أن يسمح لها بدخول صفوفهن  
وأن يمدنهن منهن لتستطيع أن تنفذ عدالتها بيدها »

هذا رأي رجل انكليزي منصف لا ينسى مصلحة أمته حين

يدل على مصلحة مصر ومصلحة المدل لذاته في مصر ، ولكن  
أبلغ من هذا قوله :

« أليس عيباً أن تبقى مصر كل هذا الزمان محرومة من الحقوق  
التي نالتها جمهورية سان دومنجو وجمهورية سان سلفادور وهما

حكومتان صغيرتان . سادتهما الفوضى ؟ أليست مصر قادرة على

القيام بما تقوم به هاتان الحكومتان الصغيرتان اللتان يحكمهما

العبيد ؟ هل ينكر علينا أحد أن أهل مصر تعلموا في مدارسهم

المنتظمة التي تفوق بعض المدارس الأوربية كل ما يتعلمه الفرنسيون

في مدارسهم ؟ فلماذا يحرمون من التمتع بالحقوق التي يتمتع بها العبيد

السود في جمهوريتهم الخفية ؟ »

حجة تنهض بالحق فلا دافع لها ، أنهضها صاحبها منذ ثلاث

عشرة سنة ، فكيف إذا ضرب الحق بها الآن وجه الباطل ؟

نحن تمشي مع السياسة إلى أقصى غايات التسامح الممكنة ،

ونشهد الناس على أننا تقدم حسن الظن بين أيدينا . ولكننا نفتقر

إلى دلائل تؤدي إلى أدنى مراتب الاقناع بحسن الظن . قول

كيف توضع شريعة القضاء الجديدة ؟ ومن القدي يضنها ؟ إن

الذي رأينا أنها وضعت على نحو ما قال صاحب كتابه - نحمزو

مصر ، من التذبذب بين الأهواء المختلفة ، والمنافرة الشديدة .  
 وستوضع على هذا النحو إذا نسخت صورتها التي فرغوا من  
 وضعها . أما الذين وضعوا هذه الصورة ، أو سيضعون الصورة  
 الأخرى ، فرجال لا تنكر أن لهم كفاءة فيما هو خاص بهم . هم  
 كانوا قضاة وعاممين وإداريين وماليين ، وهم أصحاب كرامة تأتي  
 لهم أن يقولوا في أنفسهم إنهم شرّاع ، أو إن معرفة القانون في  
 مسائله القضائية ، ومعرفة الإدارة في صنوفها الإدارية ، ومعرفة  
 الفنون المالية والسياسة المادية ، هي الكفاءة كل الكفاءة لوضع  
 الشرائع ، وتكوين روح العدل ، ولكن هؤلاء هم الذين وضعوا  
 شريعة القضاء المصري في صورته التي شغلوا بها . فكيف تكون  
 هذه الشريعة ذات قوام ثابت ، ومنهج عدل صحيح ؟

بلى فوق أنهم فعلوا ما ليس لهم أن يفعلوه . استعاروا للعدل  
 المصري عناصر غريبة قضت السياسة أن تحمل عليها شرائع القضاء  
 في الهند وغيرها من المستعمرات ، وهم باقون على استعارة هذه  
 للعناصر إذا قدر أن توضع شريعة القضاء المصري مرة أخرى .  
 فكيف يجوز أن يكون الناس سواء فيما يقضي به في أوطانهم ؟  
 لئن جاز أن تصلح الشرائع الفرنسية والألمانية والروسية  
 والألمانية . . الخ يمكن الشريعة الانكليزية في بلادها ، جاز



أن تصلح في مصر شريعة ليست إلا خليطاً متعجباً صرتكم مستعاراً  
 من شرائع المستعمرات في الشرق والغرب  
 ولكن السياسة هكذا تريد ، والأمة لا تريد ما تريده .  
 السياسة . وشتان بين إرادة ياباها الحق فينفر منها ، وأخرى  
 يرضاها فيسكن إليها . على أن الله لم يخلق للمصريين عقولا تفهم  
 الدرس الذي يراد أن يأخذوا به في هذا الشرع الجديد . ذلك  
 أمر الله ، والله غالب على أمره .





« ان للمصريين ما للأوربيين من الآمال .  
وقد ساعدتهم صحافتهم الوطنية على الالتجاء  
الى الحركة الكبرى الحاصلة في العالم الآن ،  
المسترور برتسون سنة ١٩٠٥

### درس في الادارة

قد يفترض الانسان الشيء ، وهو غير كائن ، مجازاة لخصمه ،  
ليصل به إلى محل الاقتناع بالحجة القاطعة ، وليتصور الأمر المحذور  
بصورته التي يدل عليها قياس المستقبل بالماضي فيحذره ويتقيه  
إنك لتصف الطريق الخيفة لأخيك الذاهب في سبيل النجاة  
المطلوبة ، ويكون حقاً عليك أن تصفها له ، فانك إذا لم تفعل  
كنت قد أهملت الواجب ، وفرطت في أداء الحق  
وإنك لتدل السارى في جوف الليل على مكان الظلام ، كما  
تدله على مطلع القمر حتى لا تنصرف عينه عن النور الساطع إلى  
الظلمة الخالكة ، فتزل قدمه ويضل هداه  
بل إنك لتأنس من قسك حدة النظر وسلامة البصر ، ثم  
تحتاج إلى من يرفع حجب الخدام عن عينك ويمنع مغالطة الحس

عن قلبك ، فلا يخذلك لمعان السراب ولا يفرك البرق الكذاب .  
إن الفجر الكاذب يحاور الفجر الصادق ، فإن لم تكن على  
بصيرة من هذا وهذا ، فقد يردك الأول بضلاله ، بينما أنت  
تطلب الثاني لتتهدى به .

كذلك نحن نرسم صورة فرضية . والفرضيات أمثلة تصورية  
يقتضيها وجوب الحذر مما يقدر أنه ناشئ عنها .  
ونحن قد شعبنا وعوداً وموائق ، حتى أصابنا مرض البطن  
لكثرة ما تجرعنا من حلوها ومررها ، ووفرة ما ازدردنا من  
عسلها وبصلها . بل أصابتنا تخمة الموائق والعود ، فأصبحنا في  
حاجة إلى الشفاء من هذه التخمة . وماذا علاجها إلا أن تلقى  
الافواه ما ملأ البطون ، ثم لا تعيده مرة أخرى خشية أن ترجع  
العلة أضعاف ما كانت . إنا نسمع وعوداً وموائق ، وما أشبه  
الليلة بالبارحة . فالتناس هم الناس . يعدون اليوم كما وعدوا أمس .  
والطريق هي الطريق . يسلكها غداً من سلكها اليوم .

أبت مصر إلا أن تكون في ثلث القرن الجديد كما تريد لنفسها  
وكما تريد أن تكون إلى الأبد . فهل تتبدل إرادتها بما يقال إنها  
ستناله من القشور التي تعلم تفاهتها . ولا تجهل أنها قشور تنفصل  
عن اللب الخالص فتجف وتسحق وتذروها الرياح . ثم لا تكون

شيئاً مذكوراً؟

وماذا عسى أن تكون تلك القشور؟ لقد أسلفنا بعضها واليوم ننظر في شيء آخر هو الذي يسمى إصلاح الإدارة، أو كما يراد أن يقال: تلقين المصريين درساً جديداً في مدرسة الأعمال الإدارية

آمنّا وصدقنا أن القوم آمنوا وصدقوا الآن فقط إن الإدارة مختلفة معتلة. وإن المصريين مبعدون عن المناصب الإدارية فعلاً وحكماً، لأن الأكفاء الكثيرين ضرب بينهم وبين هذه المناصب بسور من حديد السياسة، ولأن الذين تقلدوها لا يملكون تقديماً ولا تأخيراً. فلا رأي ولا سلطة ولا عمل إلا أن يتحركوا بالخطوة الموضوعة كما تتحرك قطع الآلة الحديدية الصماء بقوة الدفع المسلط عليها. ولكن هل قال أحد من المصريين إننا نطلب إصلاح الإدارة بأي صورة من السياسة التي تريد أن تتبرع بهذا الإصلاح؟ وكيف تسمع السماء والأرض ضجة المصريين العالية بطلب شيء مخصوص محدود معين هو الاستقلال التام، ثم تريد تلك السياسة أن تتجاهل هذه الصورة، أو تقول إن أذن السماء والأرض مريضة بالصمم لأن أذنها هي لم تسمع صوت المصريين أو سمعته استقلالاً، وفهمته حماية بعد أن كان احتلالاً؟

لو أن هذه السياسة أنصفت نفسها لخاربت حرباً شديدة في سبيل الوفاء بالوعود القديمة ، ولأصرت على الرفض والاباء إذا فرض أن أحداً طلب منها أن تبقى في مصر لحظة واحدة بعد الآن نعم : لو أن هذه السياسة أنصفت نفسها لفعات ذلك ليقوم لها من حسن النية شفيح يخرجها من مصر طاهرة الذيل بد أن أمضت ستاً وثلاثين سنة تنكف الاصلاح فلا يطاوعها ، وتناديه فلا يجيبها ، وتستلينه وتستطفه فلا يلين لها ولا يعطف عليها ، ولكن هذه السياسة ضرب من السياسة العامة ، والسياسة لا قلب لها ، فلا ترحم نفسها ولا ترحم أحداً

وكيف تريد السياسة أن يكون إصلاح الادارة في مصر ؟ لا ريب سيقولون : نضع أنظمة جديدة فيعانونها ، ونعطى المصريين حصة من العمل في الادارة أزيد من حصتهم الحاضرة فيعطون أو لا يعطون . ولكن مصلحة السياسة ومصلحة مصر متضادتان ، فأى دليل على أن هذه الأنظمة ستكون في مصلحة مصر ، ولو فرض إنها ستكون في مصلحتها ، فأى دليل على أنها تنتقل من القول إلى الفعل ؟ ولو فرض إنها ستنقل ، فأى دليل على أن هذا الانتقال دائم ؟ وأخيراً أي دليل على أن المصريين الذين ينالون تلك الحصة الواسعة من العمل الإدارى سيكونون

غيرين لا مسيرين ؛ ألام إن هناك دليلاً واحداً هو الماضي ، وهذا الماضي يشهد أن شيئاً من ذلك لا يكون . غير أن لا يكون من أصله ، وخير أن ترجع السياسة إلى الصداقة على البعد ، إلى الفوز بمطف أمة لها من مركزها ونهضتها تأثير عظيم في الشرق والغرب ، إلى مطلب الأمة الصحيح ، إلى الاستقلال التام . فقد عقد المصريون عليه خناصرهم وأصبحوا لا يقنعون بما دونه ، لأنهم يريدون أن يكونوا أحياء ، ولأنهم أدركوا أن الحياة هي الاستقلال .

قال المستر روبرتسون سنة ١٩٠٥ ما معناه : « إن الموظفين الانكليز يفعلون بغيرهم ما لا يريدون أن يفعله غيرهم بهم ، سواء في ذلك موظفو الادارة في مصر ، والسياسيون في انكلترا ، والصحفيون الأوريون في انكلترا ومصر » . كان هذا رأي « المستر روبرتسون » قبل أربع عشرة سنة ، فهل تغيرت الحال ؛ كلا فاتها غريزة في الفطرة . وخلق يجري من النفوس مجرى الدم من الأجسام ، وخطة وضعت لناية لا تتخلف ولكن المصريين لا يريدون أن يفعل غيرهم بهم إلا ما يفعلونه به إقامة لحكم المساواة بين الناس ، وهيات أن يرضى القوم ذلك ، فاتها طبيعة لا يغيرها الزمن ولا شيء آخر قط .

ولسنا ندرى ماذا يقول المستر روبرتسون اليوم ، وقد بقى  
الموظفون فى إدارة الأحكام والسياسيون فى انكلترا والصحفيون  
البريطانيون فى انكلترا ومصر على عهده بهم منذ أربع عشرة سنة ،  
على أننا لا ندرى ماذا يقول هؤلاء جميعاً إذا سألهم سائل : لماذا  
تصفون المصريين بما تصفونهم به ، وأنتم الذين أخذتم على أنفسكم  
تعليمهم وترقيتهم ؟ ومتى يتعلمون ويرتقون ؟ وماذا يقولون فى  
التبعة ؟ من يحتملها ومن الجدير بها ؟ ومن الذى يجب أن يترك  
هذه الشئون حتى لا تتجدد تبعته مرة أخرى ؟

إن أعذب ما قيل فى هذا الباب كلمة قالها المستر روبرتسون  
أيضاً سنة ١٩٠٥ وهى : « إن المصريين ما للأوربيين من الآمال  
وقد ساعدتهم صحافتهم الوطنية على الانتباه إلى الحركة الكبرى  
الحاصلة فى العالم الآن ، عرفوا ما قامت به الأمة اليابانية وأدركوا  
سخافة الأوربيين الذين اعتمدوا على التكهن الغربى المتأصل فيهم  
فكانوا يزعمون أن اليابان لن تحرز ما أحرزته الآن »

لم تزل للمصريين تلك الآمال ، وهى لم تقف عند المنزلة التى  
كانت لها يوم قال المستر روبرتسون هذه الكلمة . فقد تولتها  
الحياة النامية فضوعفت ، وتمهدتها النفوس الخاصة فعمظت . ولم  
تكن حركة العالم الكبرى منذ أربع عشرة سنة إلا ذرة من

حركته اليوم ، فكم يكون انتباه المصريين ؟ وكم تكون يقظتهم ؟  
ألا إن الإدارة لا تصلح إلا في أيدي أصحابها . وما كان  
لنريب الدار واللسان<sup>١</sup> والخلق والعادة أن يعرف ما يعرفه صاحب  
الدار لنفسه ، هل يكون ساكن المريح أستاذاً يلقى دروسه على  
ساكن الأرض ؟ إن أعجب العجب أن يكون ذلك أو يصدق  
عقل ، فإن كان فلا صلاح ولا فلاح !!

اللهم إن وحي الالهام الإلهي يحدثنا أن في سجل قضائك  
اليوم سطرًا كتبه قدرتك العالية : إن مصر مع نفسها في ثلث  
القرن الجديد . وإلى الأبد ...





## ٥

و لقد أبنا بتمام الجلاء أن الأمة تريد أن تكون  
 سيدة منزلها . سيدة صاحبة عزم وحزم والآن  
 تريد أن تبين أنها تريد أن تكون سيدة عاقلة .  
 ولكن تريد أن تكون سيدة على كل حال ،  
 المستر لويدي جورج

### دروس مصر لنفسها

الدروس التي تفرض جدلاً أن غيرنا سيلقيها علينا في معالجة  
 الأمراض التي عجز هذا الغير عن معالجتها خلال ست وثلاثين  
 حجة . أو الدروس التي يريدون أن يلقوها علينا كرهاً لا طوعاً ،  
 هي التي وصفناها فيما مضى ، والتي وصفنا مادتها وصيقتها ، واللسان  
 الذي تلقى به ، والأسلوب الذي يعرب عنها . وقد علا صوت  
 الأمة وصح عزمها على أن لا تدخل بمدرسة تلك الدروس مرة  
 جديدة ، لأنها تهلكة ، ولأن الذي يلقى بنفسه في التهلكة هو  
 المجنون

والأمة تعرف سبيلها يوم تنفرد في وطنها كما ينفرد صاحب  
 الدار في داره إذا تركه الضيف الذي يزاحمه في امتلاك الدار ،  
 تعرف الأمة سبيل التجديد والترميم ، ولا تبطل في بناء الأركان

المهدومة والجدران المنقضة ، كلما رأت ما فعل ضيفها الراحل  
الأمّة التي بنت فهدموا ، وغرست فاجتثوا ، وأحيت فأماتوا ،  
ورفعت تخفضوا ، والأمّة التي أقامت دهرًا طويلًا مغلولة اليد  
إلى العنق ترى الهدم والاجتثاث والاماتة والخفض ، تأبى إلا أن  
تبقى وتترس ، وتمجي وترفع ، إذا أطلقت يدها المغلوله ، وحطم  
قيدها الشديد

ولكن عسى أن يتطلع الناس لمعرفة ما ستصنع هذه الأمّة  
لنفسها يوم تترك لنفسها . ولئن لم ينطق التاريخ بما ستفعل فإن  
حياتها الحاضرة وعزمها المنشور ينطقان به

إن الأمّة المصرية صادقة الأمل في الحياة واثقة بانها ستظفر  
بحياتها الكاملة لأن لها عزيمة تخضع قوة الزمن قبل أن يخضعها ،  
ولها إرادة تحطم إرادة الدهر قبل أن يحطمها ، ولم تفتقر أمّة إلى  
أكثر من هذه الإرادة وتلك العزيمة . وكل أمّة كانت مغلوله  
فانتصرت على غالبها ، إنما كتب لها النصر بصدق إرادتها ومضاء  
عزيمتها

ليست ثقة المصريين وليدة الحركة التي أطبقت على الأرض  
في هذه الأيام ، وليس أمهم مخلوقًا مع الآمال التي أحيتها مطامع  
النور في هذه الأعوام . ولكن ثقة المصريين وأمهم قديمان ، ولو

لم يكونوا كذلك لكان أقل جهاد للسياسة كفيلا بأن يمسخهم ألواناً وأشكالاً ونفوساً غير ألوانهم وأشكالهم ونفوسهم . غير أن السياسة جاهدت جهاد المستبسل وصبرت على طول الزمن لتبلغ النصر ، ثم كانت عاقبتها وعاقبتنا أن بقيت في مصر أمة ممتلئة حياة ونشاطاً وأملاً . مندفعة في سبيل الرفعة والمجد الوطني اندفاع السيل المنحدر وكان من فضل ذلك أن حفظت قوميتها ولتتها وأخلاقيها ووطنيتها وأصاب من العلم بنفسها ما لا يتفق لأمة أخرى أن تصيبه لو أن السياسة وقفت لها موقفها لهذه الأمة

هذا الحاضر المائل أمام الابصار صفحة بيضاء ينظرها الناس فيقيسون بها ما سيفعله المصريون لأنفسهم يوم تشرق عليهم شمس الاستقلال التام . أما المستقبل فما أيسر أن تقص على الناس ماتوى الأمة أن تستوفيه من عظمته ومجده

سنصلح المالية فلا تنفق أموالنا آلافاً مؤلفة فيما لا ينفع ، ونذراً يسيراً فيما ينفع ظاهراً ويضر باطناً . ولا تكون خزانتنا كالوقف الأهلى تفيض على الموظفين الانكليز في غدواتهم وروحاتهم ، وفي يقطتهم ونومهم ، وفي حضرتهم وغيابهم ، وفي بقائهم موظفين فاذا اعتزلوا الوظائف وعادوا إلى بلادهم أفاضت عليهم معاشاً نفخاضها ، ومكافآت أضخم وأنعم من المعاش . ولا

نحترم لناكل ساعة أمور جديدة يرق ظاهرها باسم « مشروعات  
الاصلاح » وهي تستنفد المال ولو كان جبالا

سنصلح مالتنا ونحفظها وهي جديرة بالاصلاح والحفظ ،  
لأنها وافرة ولأن الناييع التي تفيض بها فائرة مباركة ، وبعد أن  
نصلحها ونحفظها يرانا العالم برآء من الدين الثقيل . ونشمر بأننا  
خفاف لا تنوء بالدين الذي يعجب الناس منه لأنه باق إلى الآن  
ولأنه ما كان ينبغي أن يبق على حاله ، فن مصر غنية ، والمزعم  
أنها سعدت بالاصلاح المالى العظيم

وسنصلح حياتنا الاقتصادية فنمود كما كنا أغنياء عن غيرنا  
إلا ما يقتضيه تبادل للنافع وتداول المصلح . تروج تجارتنا رواجاً  
لا يقف بها داخل حدود البلاد ، ولا يحمل حياتها معلقة على  
استجلاب المتاجر من الجهات التي أرادتها السياسة . وتهض  
صناعتنا بما يشد أزر التجارة ويضاعف سعتها ، وما يفي للأمة  
بحاجاتها من مصنوطاتها الوطنية الخاصة ، فيبقى الربح لنا وتنمو به  
ثروتنا وتقوى مصالحنا ، ويتوفر العمل لأبناء الأمة فلا يشقى  
عاطل بيثه ، ولا يختل النظام العام بكثرة العاطلين

وسنصلح حياتنا العلمية ، فلا نرى العلم تجارة في يد الحكومة  
تبذل به على من يعجز عن ثمنه ، ولا تظل هذه التجارة رديئة النوع

غالية الثمن كما هي الآن في السوق التي أقامتها سياسة التعليم . على أن للعلم النافع ، علم الحياة في هذا العصر ، علم المزاومة والمنافسة ، هو الذي سنفجر عيونه قروى نفوساً كاد يقتلها الظلم ، وتضيء سبيلاً كثرت شبهاتها بظلام العلم الناقص الأبر

وسنصلح حياتنا الاجتماعية ، فلا تعطى علينا سيول الفساد ، ولا يدخل غش المدينة بأدرانها وأوضارها على النفوس الطاهرة والأخلاق الرضية . ولا تبقى الأبواب مفتوحة لكل طارق ، يبيعنا السم الزعاف فيقتلنا بثن تؤديه إليه ، ويقضى على أخلاقنا وقوميتنا بجزاء حسن نجزيه به

لا نريد أن يشاركنا أحد في أنفسنا ، لنوصد أبواب الفساد ونشرح صدر الشرف الذي خذلته المدينة السياسية فأصبح حزينا كئيبا

سنصلح جملة شأنا وعامة أمرنا ، فنقف بين الأمم أمة لا ينكر الناس منها أن حاضرها غير ماضيتها ، وأن حياتها لا تتفق مع مزايا وطنها . وهيئات أن نصلح جملة الشأن وعامة الأمر ، إلا أن نكون مع أنفسنا ، وأن يرفع كل غريب يده عنا أوحث إلينا التجارب الكثيرة القاسية أن السياسة تكون صادقة لأنها تقسم وتحلف وتعهده . ولكن التجارب أوحث إلينا

أيضاً أن صدق السياسة هو الكذب . إنا لا نطمح في صدق السياسة ، بل نطمح في أن نقيم الحجة على أننا أمة تريد لنفسها ما تريد الأمة الانكليزية لنفسها ، ولا ننتظر أن تقول السياسة الانكليزية إنكم تطلبون شططاً . فإن الناس يجيبونها ، إذن : لقد طلبت الأمة الانكليزية لنفسها شططاً

يقول المستر لويد جورج من خطبته في حفلة الاحتفاء بالجنرال اللنبي : « لقد أبنا بتمام الجلاء أن الأمة تريد أن تكون سيدة منزلها . سيدة صاحبة عزم وحزم . والآب يريد أن تبين أنها تريد أن تكون سيدة عادلة ، ولكن يريد أن تكون سيدة على كل حال »

ونحن نريد أن نسأل : هل السؤدد في المنزل الخاص نعمة خلقها الله للأمة الانكليزية وحدها ؟ اللهم لا . فهو نعمة خلقها الله لكل أمة ، إذن : لماذا يكون من فضائل الأمة الانكليزية أنها تريد أن تكون سيدة منزلها ولا يكون من فضائل الأمة المصرية أنها تريد أن تكون سيدة منزلها أيضاً ؟؟ هل تقترب هذه الأمة جريمة عظيمة إذا أرادت ذلك ؟؟

كلا : إن أمتنا تريد أن تكون سيدة منزلها ، ولكنها لا تريد أن تكون سيدة على كل حال كما قال المستر لويد جورج في

الأمة الانكليزية ، بل تريد أن تكون سيدة عادلة ، سيدة صاحبة  
عزم وحزم ، في حال واحدة هي العدل . فإذا لم تجد العدل — في  
الرضا بإرادتها ، فهناك تقول :  
أريد أن أكون سيدة منزلي على كل حال ...



# ٦

« لنحي مصر . وليحي الاستقلال التام »  
الأمة المصرية

## نظراتنا في الحياة

تجنّب علينا السياسة النهمة ، فلا تراثاً أهلاً لأن نحكم أنفسنا بأنفسنا . على أنها تقول ذلك ظاهراً ويخفي صدرها ما علمت من الحق ، وهو أننا أهل لأن نحكم أنفسنا ، بل أهل لأن نحكم غيرنا لا حكم الظالم للمظلوم ، بل حكم المرشد للمسترشد .  
أما السياسة القانعة المنصفة فتظهر الحق وتؤيد أصحابه . فإذا نحن استثنينا السياسة الانكليزية الاستعمارية ، واستثنينا سياسة الأربعة الذين أقاموا أنفسهم متصرفين في الأرض حين جلسوا جلستهم من مؤتمر الصلح ، بقيت سياسة الشعوب في الغرب أجمع فإذا سألت أحد : ماذا ترى الشعوب وماذا يرى ساستها المنصفون ؟ فحسب السائل أن يعلم أن في أمريكا وحدها ٦٠٠ صحيفة تتناول القضية المصرية بالتأييد ، وعليه أن يقيس بها غيرها . ولكن السنة الاستعمار السمجة لم تزل تدعى أن المصريين ليسوا أهلاً للاستقلال التام ، وأنهم يحتاجون إلى الدربة عليه . ولا بد من أستاذ مدرب



هذا الاستاذ هو السياسة البريطانية خاضة ...

ونحن ماذا نقول لندفع زعمًا ليس من الصدق في شيء؛ إنه زعم أحبطه ما فيه من الباطل، ولكن المكابرة السياسية تقضى أن نقف لأصحابها — لا لغيرهم — موقف التدليل بالبرهان على البديهيات مما لا يحتاج إلى دليل أمام العقل المبصر، فإن لم يقتنعوا بالبديهيات وبراهينها، شهد عليهم الناس أنهم معاندون، يعرفون الحق ويكتمونه .

لم تزل السياسة البريطانية تطالب الشعب اليوناني أن لا ينسى جميلها عنده، ولا ينفل عن دينها عليه . تقول هذه السياسة إن لها على هذا الشعب جميل الاقتاذ ودين الحرية، والشعب اليوناني معدود من الشعوب الشرقية، وقد ظفر باستقلاله منذ زمن طويل، ولم يقل أحد إنه كان يوم نال استقلاله أعرف بالحكم الذاتي من الشعب المصري في أيامه الحاضرة، ولا أوفر منه عددا ومالا، ولا أرسخ وطنية وعزما، ولا أوسع كفاءة وعلما . كانت السياسة البريطانية تعرف ذلك ولم تزل تعرفه، فلماذا لم تطلب يوم أقتذت الشعب اليوناني أن تتولاه بالتعليم والاصلاح لتؤهله للحكم الذاتي؟!

الشعب المصري لا يقل عن الشعب الروماني غنى وقوة وحياة

فهل يملون أن أحداً تولى رومانيا بحماية أو وصاية حتى لقنها  
دروس الحكم الذاتى وسقاها وسيلة الاستقلال التام ؟ . وهكذا  
يقال فى البلغارين والعربيين وأهل الجبل الأسود . بل نطلب  
من السياسة الاستعمارية أن تدل الناس على المدرسة التى سيدخلها  
اليوغسلافيون اليوم ليتلقوا دروس الاستقلال على أساتذة  
الاستعمار ..

يقولون : إن الشرق لم يزل تلميذاً صغيراً يقتدر إلى أستاذ  
هو الغرب . يقولون ذلك ، كلما صدمتهم حجة الشعوب الشرقية  
التي أخذت ألقاها أقاليم الاستعمار . ويقولون حينما يقسمون  
الأرض شرقاً وغرباً إن شعوب البلقان كلها شرقية . فإذا يقولون  
لمن يقيم الحجة على أن الشرق أستاذ نفسه فى حاضره ، وأستاذ  
الغرب فى ماضيه ويستدل على صدق هذا القول بهذه الشعوب ؟  
أيكذبون أنفسهم مرة أخرى فيزعموا أن شعوب البلقان أوربية  
غربية .. فليكن ذلك كذلك . غير أن الحق يلجمهم إذا نهضت  
حجته من ناحية اليابان . ثم من ناحية شعوب روسيا الشرقية ،  
التي وقفت السياسة أمامها حائرة متذبذبة ، فرة تعرف لها حق  
الاستقلال ، ومرة تنكزه عليها ، وأخرى تسكت عن الاقرار  
والانكار !!

وبعدكم من السنين تصبح الأمة المصرية أهلاً للاستقلال التام على يد السياسة الانكليزية ؛ إنهم يريدون منا أن نصدق أن مصيرنا إلى الاستقلال في أيديهم ، ولكننا نطلب مثلاً واحداً ، يشهد أن انكلترا تركت أمة من الأمم التي كانت متغلبة عليها قائلة لها : اليوم استودعك الله فاذكرى هذا الجليل

أين هذه الأمة ؟ أم هي أمريكا التي أتخذت نفسها كما تنفذ كل أمة نفسها ؟ أم هي البوير وأمرها معلوم ؟ أم هي كندا وحالها غير مجهولة ؟ على أن يد الاستعمار البريطاني قبضت على بعض الأمم الكبيرة العظيمة الغنية دهرأ يربو على مائة عام . فهل كان هذا الدهر كافياً لتعليم تلك الأمة وإصلاحها وتدريبها على الحكم الذاتي ثم توديعها بسلام ؟!

اللهم إن مصر لا تريد أن تبقى مائة عام فانها تعلم أن السياسة لا تقنع بالدهر كله أجلاً للاعتراف بأنها قادرة على حكم نفسها بنفسها ..

إن السياسة التي لا تخزىها هذه المزاعم ، تقف الآن لبعض الأمم المستقلة موقف النمر المتحفز للاقتراس ، تحفز السياسة لتثب على تلك الأمم المستقلة فتفجعها في استقلالها ، فهل ينتظر أن تجود من نفسها بالاستقلال على أمة محرومة منه ؟ وهل ينتظر أن تصدق

في دغواها إنها تهبي\* هذه الأمة للاستقلال ؛

إلى هنا مزقنا حجاب الابهام عن مفاخر السياسة الانكليزية في هذه البلاد ، فانك كشفت تلك المفاخر ورآها الناس هباء ، فلا الاصلاح لإصلاح ، ولا التعليم تعليم ، ولا الادارة إدارة ، ولا النظام نظام ، وليس للصدق شائبة في كل ما يدعون أنه إصلاح غير أن هناك مفخرة يظنّ الساذجون أنها حق ولم تكن إلا باطلا تلك التي يسمونها إقناذ المصريين من السخرة ، أو من ظلم الحكام قبل الاحتلال الانكليزي . أما نسبتها إلى هؤلاء المصلحين فخطأ كنسبة كل شيء اليهم . والصواب ما قاله المؤيد في رده على خطبة اللورد كرومر في حفلة وداعه المشهورة وهذا نصه :

« وقد فات اللورد أن حكومة مصر قد قررت قرارها في أمر العونة قبل الاحتلال وكانت سائرة في طريق التنفيذ . وإن أول معاهدة للرق كانت بينها وبين انكلترا قبل عهد اللورد بسنين وأن النظمات القانونية التي سوت بين الأمير والحقير في النهاية لم يضع أساسها في مصر اللورد ولا قومه . وأن الناس نشطوا الى الكسب والعمل وأخذوا يجنون ثمار أعمالهم من يوم بدى برفع أقال الضرائب الشاذة عن كواهلهم . وأن ما رفع من هذه الأقال في سنتي ٨٠ و ٨١ قد بلغ أكثر من مليوني جنيه مع أن

ما رفع من هذه الأثقال في زمن الاحتلال لم يزد عن ٦٠٤ ألف جنيه سنوياً ،

إذا كان هذا هو الحق فإذا يبق للسياسة من المفاخر ؟؟  
أللم لا شيء ، إذن : نخير شيء أن نرحل عنا ، فإن كل لحظة تمضيها معنا تزيد عدم تصديقها اتساعاً ، وتزيدنا تأخراً وضياعاً  
نحن نطلب ما يطلبه كل حي في الوجود  
نطلب ما لا يرضى خصومنا أن يفقدوه  
نطلب النعمة التي تطلبها الأمم بأعز شيء عليها  
نطلب الاستقلال التام ، فلا تنام عنه عين أحد فينا ، حتى يقضي الله بأمره

لتحي مصر . وليتحي الاستقلال التام



## خاتمة

ثبت هنا المقالة التي نشرها الباحث المدقق الأستاذ المهيأوى افندى في جريدة الافكار الفراء إبان توليه رئاسة تحريرها أخيراً تحت عنوان « الشعب القوى » فانها أثبتت خاتمة تلحق بتلك الآيات البينات ، لما تضمنته من القضايا الصحيحة والمقدمات المنتجة في مسألتى : القوة والضعف ، وكيف يناوى الضعيف الدليل ، ذا القوة الناشئة والجبروت الظالم فينال حقه منه — قال :

ليس الشعب القوى من يملأ البحار حديداً ونارا ، ويملاأ الأرض فضة وذهباً ، وينزل أفراداً منه منزلة الملائكة من الناس ، يحسبون أنهم أطهار وإن دنسوا ، أبرار وإن غدروا ، ولكن الشعب القوى هو من تكون له روح الثقة بنفسه ، ومن ينطوى صدره على إرادة للحياة ، تذيب الحديد ولا يذيبها لم تخلق القوة مع الأقوياء يوم خرجوا إلى الأرض . فكل قوة مسبقة بضعف ، ولكن الأقوياء أرادوا أن يغلّبوا الزمن ، ويصرعوا الأيام ، فطردوا من نفوسهم هواجس الضعف ، وترعوا من صدورهم رهبة القوى الخفيف ، وثبتوا على الإيمان بأنهم أقوياء في ضعفهم ، ما داموا يرون في أنفسهم قوماً أهلاً للحياة ،

وأهلاً لما تقتضيه الحياة من إباء الضيم ، والغيرة على حق الوجود  
إن الضعيف الذى يترفع عن وصفه بالخور وقصر الباع  
وانحلال العزيمة يحد في قرارة نفسه قوة معنوية ، إن لم تكن هي  
القوة المادية التي تبطش وتحطم فهي سبيلها للتؤدية اليها حتما .  
وليست بالضعيف حاجة إلى القوة الباطشة ليصول بها على أمثاله  
الضعفاء . ولكن حاجته اليها حاجة الأعزل إلى السلاح يدفع به  
عن حياته فاذا حاش ، حاش كريماً مهيباً . واذا مات ، مات شريفاً .  
هذه كلها حاجة الضعيف إلى القوة كيلا يموت كما يموت المغفلون  
حسب الذى يظن بنفسه الضعف أن تكون له إرادة الأقوياء  
ليكون قوياً . هذه حقيقة تتناول الناس جميعاً . أما أن تنظر إلى  
مكانها من حياة الشعب المصرى ، فذلك الذى يشهد الحق بأنها  
كاملة فيه

تصعد الآمال بنا إلى السماء أو ما فوقها ، وترتفع آمالنا على  
أطراف العزائم الصادقة ويثبت أصلها في أعماق القلوب المؤتلفة ،  
وإذا كان في الأرض شعب خلى أن تعجل له عزيمته وصدق  
إخلاصه لنفسه بالمطلب الجليل . فذلك هو الشعب المصرى .  
واكنا نخشى أن يكون ضلال بعض الآراء القديمة لم يزل ضارباً  
حجاباً على بعض النفوس ، بل نحن لا نخشى ذلك ولا نخاف أن

يكون في مصر أمثال أولئك الذين كانوا يقولون : أين نحن من  
خصومنا ، وأين قوتنا من قوتهم ، وكيف السبيل إلى الحق الضائع  
ونحن ضعفاء ؟؟

هذا سم كانت النفوس الميتة تمصره من خور العزيمة وسقوط  
الهمة ومرض القلب . والآن كل مصرى يقول : أين نصيب  
الظالم من الثبات بجانب المظلوم ؟ وأين قلق الغاصب من رزاة  
المفصوب منه ؟ وأين برودة الغالب من نار المألوب ؟ بل أين ضجعة  
الباطل من صولة الحق ؟ وقد يعجب من هذا الذين خدعتهم  
ظواهر الناس . ولكنهم سيظمتون بالحقيقة ، إذا رجعوا إلى  
تاريخ العالم

هل كانت أمة ضعيفة فبقيت على ضعفها أبدا الدهر ؟ وهل كانت  
أمة قوية فسالتها الأيام ، ثم كتبت لها عهداً أن تبقى على قوتها ؟  
إن شمس السماء تحدث أهل الأرض ، بمن كانوا أهل قوة وبأس  
فضربهم الزمن حتى أفنهم . وإن الأرض لتخبر أنها حملت آخرين  
كانوا من الضعف في درجة العدم ، ثم استحال ضعفهم قوة فمزوا  
بعد ذلتهم ، وحيوا بعد موتهم ؟ وكيف نفترى الكذب على الله  
فيجربى في بعض الخواطر أن الله خلق الضعف لباساً لصنف من  
أصناف البشر . وخلق القوة تاجاً لصنف آخر . وهذا لسان



## اعلان

من مكتبة السيد محمد المناديلي الشهير بالزهيري وولده محمد سعيد  
من المعلوم بالضرورة ان الصديق في المعاملة اساس كل نجاح  
وفلاح وقد من الله علينا وله الحمد بالتباع هذه الخطة الشريفة مع  
جميع عملائنا وزبائننا فنرغب في معاملتنا بشرف مكتبتنا  
المدكورة ليرى ما يسره من حسن المعاملة وسهولة الجانب والمهاودة في  
الامان وتوفر الاصناف سواء كانت من ملزماتنا او من ملزمات غيرنا  
وسرعة تلبية الطلب ومن لم يتيسر له تشریفنا فليخبرنا عما يلزمه  
بطريق البريد وليس كالتجربة من دليل والله الهادي الى سواء السبيل

أحمد الزهيري وولده

محمد سعيد المكتبي

بيد ان الازهر الشريف بمصر

